

السلطة والسيادة في التراث العربي

د. مسعود بوبو

الى

نؤسس لعلاقة موضوعية بين ما نتحدث عنه بشيء من التفصيل وبين العنوان يقتضي الأمر تناولاً أو عرضاً يمازج بين التعقل والشجاعة ، ومنهجاً لا ينبني على المقولة العربية : « ليس بين الحق والباطل قرابة » ، ولا على ما كانت الثورة الفرنسية في بدئها تقوله : « اذا لم نستطع أن نجد الخائن فعلياً أن نخلفه خلقاً » . وليس علينا نحن الآن أن نقيم من الابداع والسلطة بمعناها التجريدي المطلق جبهتين متواجهتين كي نرضي نهم الباحثين أبداً عن معركة أو خراب ؛ ولا أن نقيم مصالحة مفتعلة بينهما متجاوزين مجموعة كبيرة من الخصومات ، والمنافقة ، والحجاج .. مما لا يزال يؤرق الذاكرة العربية ، ونبحث عن مُبتعدٍ له من التاريخ العربي .

نحن لم نخترع فكرة السلطة بأي معنى من المعاني ، وانما سبقنا الى هذا التقليد من كان يشعر شعوراً ملحاً بضرورة وجودها لحمايته - زمن شحّ الحمايات - . والسلطة كانت في حاجة مماثلة الى أي ابداع يزيدها تمكناً ، وثقة ، واطمئناناً ، واستمتاعاً ، فتقبلت مثل هذا التحالف الفطري إرضاء لغورها . أو استجابة لحاجتها ، ولهم تجد مانعاً من السعي اليه عندما كان ينحسر عبر التاريخ .. ولا ينفرد بهذا التصوّر العقل العربي أو التراث العربي ، بل يبدو لنا متكرراً وفي تجليات تعيد تقديم نفسها بصور جدّ متشابهة في التاريخ البشري .

وقبل أن تتوزعنا التفصيلات يستحسن أن نقف قليلاً عند مفهوم

الابداع ، ومفهوم السلطة في محاولة لمدّ الخيوط على رقعة نسيج متجانس . أما الابداع فقد قيل في تعريفه ومفهومه كلام غير قليل^(١) ، يتلخص جوهره في أن الابداع لون من النشاط الانساني : الفني ، أو العلمي ، أو الفكري ، أو الاجتماعي ، وينبغي أن يكون ذا قيمة ، وفيه أصالة وابتكار . يقول الكسندرو روشكا :

« ان الشكل الأساسي لعلاقة الانسان الفعّالة بالعالم الخارجي هو النشاط ، والشكل الأساسي للنشاط الانساني هو العمل في مجالاته المتعددة : في عمل العامل ، و الفنان ، والعالم ، والسياسي ، والمفكر ، والمهندس ... الخ . وفي هذه المجالات المتنوعة من النشاط يظهر الابداع ويتجلى »^(٢) .

ويقول في موضع آخر : « الابداع شكل راقٍ للنشاط الانساني »^(٣) . واستعداد أو قدرة على انتاج شيء ما جديد ، وذو قيمة »^(٤) .

واستثناساً بمثل هذا التصوّر ، وبما شابهه عن مفهوم الابداع يمكن القول ان العملية الابداعية تتصف بالفعالية ، والقيمة ، والتفوّق ، والفائدة ، وتنوّع المجال والاستعداد . وان مصدرها وأداتها المبدع الذي يتبدى في إبداعه المتنوّع طاقة تتجاوز العادي لتكون إسهاماً متميزاً في صنع الظاهرة الحضارية ، أو المشروع الحضاري ، ومن هنا يمكن أن يكون المبدع فناناً : (شاعراً ، أو مغنياً ، أو رساماً ، أو مهندساً معمارياً ...) كما يمكن أن يكون سياسياً ، أو متكلماً ، أو فقيهاً ، أو طبيباً ... ولا تصّاف الابداع بالابتكار فان المبدع أعلى من أن يكون استمراراً تقليدياً أو نمطياً لغيره . إنه يرفض نقل الأشياء كما هي ، ويرفض العادي ، أو يحيله الى تكوين فني ويشعنه بالادهاش ، أو يعيد بثّ الحياة والتبضان في موات الأشياء وكمونها . ولا ينفي هذا أن يكون إبداعه حصيلة تراكم معرفي يصل به الى حالة عالية من الوعي ، كما لا ينفي أن يكون الابداع طفرة كالومض ... وحين نعرض للعلاقة بين المبدع والسلطة بهذا المنظار ينبغي ألا نغفل ما للظواهر الابداعية في تراثنا من خصوصية وقدم .

أما مفهوم السلطة فيتجلّى في أشكال ودرجات وتسميات بعضها جاء على الحقيقة ، وبعضها استخدم في العربية على المجاز ، يقول ابن فارس في

(مقاييس اللغة : مادة سلط) : « السين واللام والطاء أصل واحد ، وهو القوة والقهر . . . ولذلك سمّي السلطان سلطاناً . والسلطان : الحُجّة . والسليط من الرجال : الفصيح اللسان الذّرْبُ » . في العربية إذن ينعقد هذا الأصل لفة : على القوة ، والحُجّة ، وفنّ القول . وثمة - عبر التاريخ - سلطة الأب ، وسلطة السيد ، وسلطة الراعي الديني ، وسلطة العقل والقلب والضمير والحب . . . وسلطة المال ، وسلطة الطبقة ، وسلطة المستعمر ، وسلطة القانون . . . إلخ . ثم أخيراً سلطة الدولة . ولهذه السلطة نجد في أحد كتب المصطلحات الحديثة تعريفاً على النحو التالي :

« السلطة هي القدرة القانونية على ممارسة نفوذ على فرد أو جماعة . ومن وسائلها إصدار الأوامر والنواهي ممن يملكها إلى الخاضعين لها ، ومراجعة أعمالهم ، وإثابتهم ، وعقابهم . ومن أقدم صورها في تاريخ المجتمع البشري : السلطة الأبوية . . . وسلطة الزوج على زوجته . . . وسلطة شيخ القبيلة ، وزعيم العشيرة ، وحاكم المدينة ، ثم رئيس الدولة الذي كانت السلطة مركّزة في يده خلال عهود الحكم المطلق ، وكانت تتركز على أساس فكرة التفويض الإلهي . وبعد الثورات ، وفي ظل الحكم الديمقراطي تغير مصدر السلطة السياسية وأساسها : فأصبح مصدرها الشعب ، وصار أساسها تفويضاً منه للحاكم ، كما وُرّعت هذه السلطة بين هيئات متعددة أخذاً بمبدأ فصل السلطات الذي يعتبر دعامة أساسية للديمقراطية لأنه يستهدف حماية حقوق الأفراد وحرّياتهم . . . وليس المقصود بالفصل (هنا) معناه المطلق ، وإنما مجرد تمييز السلطات وتحقيق التوازن فيما بينها بحيث لا تسيطر إحداها على الأخرى .

- ومن معاني السلطة : الوظيفية ، أو الاختصاص الذي يمنحه القانون لشخص أو هيئة ، وبهذا المعنى تتفرع السلطات من الواجهة الدستورية إلى ثلاث : التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية » (٤) .

وإذا ما قايستنا هذه الأنماط من السلطات بنظائرها في تراثنا العربي فسنجد أن ما يعيننا منها هنا : سلطة شيخ القبيلة ، أو زعيم العشيرة ، أو حاكم المدينة ، ممن سُمّوا بالملوك ، أو العمال ، أو الولاة . فقد كان لنا من

هؤلاء ملوك ، كملوك الفساسنة والمناذرة ، ومن كانوا قبل الاسلام من أمثالهم . أما العمال والولاة والأمراء فهم الذين مثلوا السلطة التنفيذية ، أو جانباً من مسؤوليات السلطة الدينية التي جاءت بها الشريعة الاسلامية . ومن هنا يمكننا أن نستبدل بكلمة « القانون » كلمة « التشريع » ليكون التعريف السابق للسلطة ، وهو : « القدرة التشريعية على ممارسة نفوذ على فرد أو جماعة... » عوضاً من قولنا هي القدرة « القانونية » .

والشريعة - مصطلحاً - : ما شرعه الله لعباده من العقائد والأحكام والأوامر الالهية التي تنظم حياة المسلم من جميع وجوها .

وقد كان للشريعة سلطان قوي على عقول المسلمين وسلوكهم ، وبدهي أن يكون لمثلها السلطان ذاته ما التزموا بمصدر الشريعة المستمد من القرآن واتّباع السنة النبوية . ونعرف جميعاً أن التشريع الاسلامي جاء مترابطاً منظماً وفق منهج متماسك متكامل ، وبقي كذلك مع ما اعتري الاسلام والمسلمين من اجتهاد في فرقهم ، أو انقسام في دولهم . لكن التوفيق بين النظرية والممارسة ، وبين السلطة السياسية والسلطة التشريعية لم يحقق التطابق المنشود . وما يمكن أن نراه من خلل أو تقصير في ممارسة السلطة على أرض الواقع ينبغي أن يعزى إلى الرموز التنفيذية للسلطة عبر تاريخنا العربي ؛ كما ينبغي أن يعزى إليها نفسها ما حققت من جليل الأعمال والمواقف ، كي نكون موضوعيين ومنصفين .

ولا معدى عن الإشارة هنا إلى أن قدراً غير قليل من الغبن قد أصاب العربي بسبب تجاوز الحدود المرسومة للسلطة في التشريع ، وفي ظل تأويلات أو تفسيرات جائرة لمفاهيم عامة تتصل بأفعال البشر ، كالمباح ، والجائز ، والواجب ، والمحظور ، والمتروك ، والمكروه والمنهي عنه ، مما وسع من دائرة صلاحيات السلطة ، وفتح أبواباً مواربة للاجتهاد والاحتمال ، وربما التعسف في استخدام السلطة .

في ضوء هذا كله - على ما فيه من إيجاز وتكثيف - سنحاول أن نتقرب خيوط الصلة بين السلطة والابداع أو المبدعين متخربين حالات وأخباراً ووقائع تستوقف المتأمل في تراثنا بقدر ما نرى فيها من مدلولات ومقاصد ، وبمنهج

الاستقراء الناقص ، إذ من المتعذر علينا رصد مجمل ما في تراثنا من تفصيلات وإجراءات .

وتجدر الإشارة هنا الى أن أشكال السلطة في تاريخنا ، وتصرفاتها لا تمثل استثناءً خاصاً في تاريخ البشرية ، أجل ، قد تكون لكل مجتمع أو شعب طبيعته وظروفه الخاصة ، ولكن ممارسة السلطة كثيراً ما تتشابه في فلسفتها ومسوغات مواقفها ، وخاصة عند انحرافها ، أو إحساسها بالخطر ، أو عند مس سُمعتها . وقد نجد أمثلة لذلك في تاريخنا المبكر ، ونخص بالذكر من ذوي السلطات مَنْ كانوا على تماس مباشر بالمبدعين ، كالملك « عمرو بن هند » ملك الحيرة ، و « النعمان بن المنذر الخامس » زوج « هند » الملقب بأبي قابوس ، وكأمراء القساسنة في الشام : « الحارث بن جبلة ، وابنه المنذر » ، وآخر ملوكهم « جبلة ابن الأيهم » . . . والذي يعنينا من هؤلاء كشاهد على ما نقول أن الشاعرين : المتلمس الضُّبَعي ، وابن أخته طرفة بن العبد قالاً شعراً هَجَوْا فيه الملك عمرو بن هند ، فاتصل ذلك به ، ولم يظهر شيئاً من التغير ، ثم مدحاه بعد ذلك ، فكتب إلى عامله بالبحرين بقتلهما وأوهمهما أنه كتب لهما بجوائز ، وأقرأ المتلمس رسالته صبيّاً من الحيرة ، فإذا مضمونها : « أما بعد ، فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً » . فقال لطرفة : ادفع إليه صحيفتك ، ففيها والله ما في صحيفتي . فقال طرفة : كلا ، لم يكن لي جترىء عليّ ! وهرب المتلمس إلى الشام ، أما طرفة فمضى بالكتاب ، فأخذه الربيع بن حوثة (عامل عمرو بن هند) ، وسقى طرفة خمراً حتى أثمله ، ثم فصد أكحله . فقبّرهُ بالبحرين (٥) .

هذا الخبر المبكر المشهور يفتح باباً للتساؤل عن طبيعة العلاقة بين السلطة والمبدع ، ويحمل العقل على الموازنة - قبل الأوان - بين الجرم والجزاء ، وخاصة إذا ما عرفنا أن الشاعرين كانا نديمين للملك !! فلا فكرة العدل ، ولا العلاقة الانسانية استطاعتا أن تكونا شفيعتين ، أو مانعتين من إنزال البطش بمن فكّر بشهر سلاحه الفني علناً في حضرة السلطة ، أو برفع صوته وصوتها موجود ، وأقوى . .

هل نتعجّل القول ان الخوف من هنا يبتدىء ؟ أو أن الخصومة من هنا تبتدىء ؟

أو نفعل أمر الفعل وردّ الفعل لتحرّى بواعث التصرف وملايساته بحسن نية
ومحايدة ؟!

ان القصّة - الشاهد ليست حدثاً فريداً ليكون محور التساؤل والافتراض ،
ثم الخروج بحكم ؛ بل ان هناك أخباراً أخرى قيّدها كتب التراث تستدعي
فضل قول ، وما علاقة الشاعر الجاهلي النابغة بأبي قابوس بخافية على أحد ،
وما خوفه ومدحه واعتذارياته سوى ترجمان لما كان يغتلي في داخله من قلق
وهلع ، ألم يقل للنعمان :

فاتك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أنّ المنتأى عنك واسع ؟

وكانت ديار الفساسة في الشام مُستترّاداً لنخبة من الشعراء ، كالنابغة
نفسه ، والأعشى ، والمرقش الأكبر ، وعلقمة الفحل ، وعلى الأخص كحسان
ابن ثابت . وكان هؤلاء - كما هو معروف - سباقين الى « تطبيع العلاقات »
مع السلطة ومجالستها بطواعية وانقياد ، كما يبدو في الظاهر . وكان المدح
سبيلهم ، والتقرب مؤهلهم . فهل كان ذلك تقديراً للابداع ، أو توظيفاً له ؟
أو كان ترويضاً للمبدع ؟ أو ضرباً من المصالحة والوئام ؟!

واذا ما قرّنا هذا مع أمر الملك عمرو بن هند (بتقطيع) التلمس ،
وربطنا بين مرامي هذه الحالات المبكّرة تبين لنا كيف بدأت خيوط الفجر الأولى
لهذه العلاقة بين السلطة والمبدع تحيك نسيجاً سيكون بالغ الاتساع والتعقيد..
كما سيتبين لنا أن مسألة قطع اليدين والرجلين كما أرادها عمرو بن هند
ستكون سابقة لاحقة ، وستكون أداة ردع ، أو تحذيراً يطيب للسلطات
معاودة القيام به ، كما ستتبدى لنا عقوبة تماثلها ، وتعدّ سابقة لاحقة أيضاً في
مسألة « قطع » اللسان ، أو لجمه وإسكاته . ففي الجاهلية تأسر قبيلة
التيّم (يوم الكلاب) الشاعر عبد يغوث بن وقاص الحارثي ، وخشية
قوارص شعره تربط لسانه بسير من الجلد .. وتعلو صرخته :

أقول وقد شدّوا لساني بنسعة أمعش تيم أطلقوا من لساني

صحيح أن عبد يغوث هذا لم يكن أكثر من أسير في قضية ثأر فردية ،
ولكنه - وهو في قيده - كان لسانه مصدر خوف .. ذلك اللسان الذي أمدّ

العربية بطائفة من الأمثال والحكم والكنيات التي تنعقد رمزاً لأثره، وللخوف منه . وتجدر الإشارة هنا الى أن «التييم» صبّوا لعبد يغوث خمراً ، وفصدوا عرقه ليشرب حتى يموت ، على غرار موت « طرفة » وعلى غرار الميتة التي اختارها عبّيد بن الأبرص حين قال له النعمان بن المنذر : أيّ قتلة تختار ؟ فقال : اسقني من الراح حتى الثمل ، ثم افصدني الأكل ، ففعل ذلك به (٩) .. فتأدل كيف يجتهد المولعون بالايجاع لابتكار وسائل لعينة في المعاقبة يعتمدونها (كمادة) في القانون ! . وكيف يبدو الشاعر المبدع خائفاً ومخيفاً منذ ذلك التاريخ الذي لم يكن هيكल السلطة فيه قد تشكل على النحو الذي سنراه بعد ذاك ! . ألا يبدو طرفا النزاع كالإنسان والحيوانات المفترسة ، فالإنسان قد يستمتع بمشاهدة تلك الحيوانات وهي سجينه الأقفاص الحديدية ، ويراقبها خليئاً مطمئناً ، ويتنادر ، فاذا ما طيف به في محمية لتلك الحيوانات - كما في افريقية أو الهند - وضعوه هو في قفص حديدي ، محاصراً ، والحيوانات تراقبه ، وتهز رؤوسها ، وتتنادى ؟!

في الجاهلية كانت راية الشعر مرفوعة، وكان الشاعر لسان القبيلة المدافع عنها ، وكانت له أسواق وأندية وهموم، وكان الشعر ديوان العرب كما سماه السابقون والخالفون . . وفي اختصاص شديد كان الشعر أبرز مظاهر الابداع عند القوم . . وكان من أثره عند السلطة أن « استطاع بعض الشعراء بما أصابوا من منزلة عند ملوك الغساسنة والمناذرة وغيرهم أن يردوا عن قومهم عادية هؤلاء الملوك وأتباعهم ، وأن يشفعوا لهم إذا وقعوا أسرى في يدهم ، صنيع النابغة الذبياني مثلاً حين أوقع ابن الجلاح الكلبي ببني ذبيان ، واستاق منهم عدداً ، فقد شفع لهم النابغة فأطلق سراحهم . . ولما أسر الحارث النفساني شأس بن عبدة ورجالاً من تميم أتاه علقمة بن عبدة ، أخو شأس مستشفئاً وأنشده قصيدته المشهورة التي مطلعها :

طَحًا بكَ قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طُرُوبُ بُعِيدِ الشَّبَابِ عَصْرُ حَانَ مَشِيبِ

فأعجب به الحارث - فيما يروون - فخيرّه بين الحباء (العطاء) وبين اطلاق أسرى قومه فاختر الأمر الثاني (٧) . . وكمان كان الشاعر بمهارته وابداعه

يؤثر في مستمعيه من الملوك فيحملهم على اتخاذ موقف أو العدول عن قرار ، كذلك كان الشاعر يرسل الى الملك يتهده اذاهو حاول الاغارة على قومه ، ويخوفه عواقب عمله باشاداته بقوة قبيلته ومنعتها وكثرة عددها . فالنابغة الذبياني تهده عمرو بن كلثوم حين بلغه أنه يتأهب لغزو قومه بني ذبيان مستعيناً بتغلب ، والشاعر عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ردّ على وعيد النعمان ابن المنذر وتهديده قومه بني تغلب بوعيد مثله يتحدّى فيه النعمان (٨) . . . فكيف نقوّم هذا بحياد وموضوعية ؟! أفنقول انه كان زمن الفروسية ، أو كان زمن الفردية التي لا تصلح معياراً لرصد العلاقة بين المبدع والسلطة على وفق تصورنا اليوم ؟ أم إنه كان زمن الحرية التي لم تكن قد كدّرتها أنظمة التحكم بالانسان ؟!

ولكن ، ثمة وجه آخر لطرفي هذه العلاقة ، ربما حرّض على الابداع بما حمل في مظاهره من الألم والأذى . . . وكثيراً ما كان الألم ، والحب وراء الابداع الخالد . في قسمات الوجه الآخر نتبيّن المأ انسانياً يقرب مما نسميه اليوم « التمييز العنصري » ، وكان ضحاياه أغربة العرب وسودانهم ، أولئك الذين كانوا منبوذين أدخلتهم عقدة « جلدتهم » في نوع من الكابوس الخائق ، وصيّرت شعرهم غُصّة في حلق تراثنا العربي . هؤلاء أسقطهم السلطان من حسابه حين أبعدهم عن المجالس ليُدني نظراءهم ، فلم يُقبّلوا ندامى ، ولا سمّاراً عند الملوك ، ولم تقبل القبيلة ولا المجتمعات تغزّلهم ، وقلّما أتيح لهم الانشاد في مجالس الشعر وأسواقه . . . لقد كانوا - بصفة عامة - « بعيدين عن دائرة الضوء » ، ذلك لأنهم في الغالب كانوا يعيشون عند الناس لا بين الناس ، وكانوا بلا جذور في مواجهة المجتمع ، وقد ساعدتهم هذا على أن يكونوا خارجين على المجتمع ، أو غير منتمين (٩) . أو يكون انتماءهم - حين ينتمون - للكيانات التي تضع « العدل الاجتماعي » في برامجها من قريب أو بعيد كالخوارج والشيعة وبعض الأنظمة الثورية ، ومعنى هذا أنهم كانوا على حافة الأنظمة ، أو متذبذبين بين القبول والرفض ، أو منسحبين تماماً من كل ما يدور حولهم ، لأن ما يدور حولهم كان أقوى منهم ، ولأن من يقترب منهم قد يصعق ، أو يُقسم بالسيف ، أو يموت وهو منشور الذراعين (٩) !!

صحيح أنهم اختلفوا في معاناتهم وخصائصهم عن الشعراء الصعاليك ، ولكنهم التقوا معهم في مشاعر الاستياء من سلطة القبيلة أو الزعيم ، وفي الرفض لامتهانهم وملاحقتهم ، وإنْ تفاوت هذا الرفض قولاً ومسلكاً . ولعل قدراً طيباً من الشعر الانساني قد تولّد عن مثل هذا القلق النفسي المبكر . يقول الدكتور عبده بدوي الذي أفرد لهم كتاباً برأسه :

« لقد اهتموا اهتماماً خاصاً بظاهرة الموت . . وكانوا يُحسّون أنهم دائماً في خطر . . وعاشوا يتأمى في الحياة ، وفي الوقت نفسه كانوا مطالبين بالحصول على « تصريح اقامة » داخل مناطق بأعيانها من المجتمع . . ثم انهم قد تفرّدوا بأنواع غريبة من الموت ، فهذا مثلاً (سحيم) قبل مقتله يقرّب من النار ، ويضرب بالعيدان المحمية ، وهذا علي بن جبلة يُخرّج لسانه من قفاه ، وأبو نخيلة يسلم ببطء جلد وجهه الأسود ، وابن الياسمين يوجد في حجرته مقتولاً بطريقة شاذة ، والامام أحمد الرشيد يصلب شنقاً ثم يجرّ من رجله الى احدى الحفر . . . ومن قبل كل هؤلاء قتل عنتر والسليك قتلاً فيه الكثير من المرامة ، والقليل من العزاء » (١٠) .

أمام هذا الجور والتنكيل تُقيّد لناكتب التراث صرخة الاحتجاج بوجه السلطة ، وتقيّد لنا - في الوقت نفسه - مظاهر من الابداع الذي صوّرها . . إن خفاف بن ندبة يبدأ بالتمرد على زعيم القبيلة عباس بن مرداس ، وعباس هذا شاعر كما هو معروف ، ويبدأ بينهما نوع من المخاصمة والجدل وما يشبه النقائض ، ويصبحان خصمين أو كالأخصمين . . وإذن فتلك هي البذور الأولى لنشوء جبهتي الخلاف بين المبدع والسلطة . . ويوشك المرء أن يتردد في تسليط الضوء على ما تعرض له السود من اعتداء مُخزٍ ، على أنه - ان أراد الاشارة الى ابداعهم - لن يكون بمقدوره أن يفعل ذلك ما لم يربط بين القمع والابداع ، لأن شعر هؤلاء كان في معظمه ردّة فعل تكشف ما بالنفس من غضب ، أو تُفصح عما فيها من ألم ومرارة . . لقد ضربوا كما تُضرب الدواب أحياناً ، ولأسباب غريبة ! ان شاعراً منهم يدعى « داود بن سلم » تجرّأ فتخايل مرة في مشيته ، فاذا والي المدينة يضربه ضرباً مبرحاً ، وهو القائل (١١) :

وَمَنْ يَطْعِ الْهُوَى يَعْرِفْ هَوَاهُ وَقَدْ يُنْبِيكَ بِالْأَمْرِ الْخَبِيرُ
عَلَى أَتَى زَفَرْتَ غَدَاةَ هَرَشِي فَكَانَ يَرِيبُهُمْ مِنِّْي الزَّفِيرُ

ولقد جاعوا حتى أغمى على بعضهم من شدة الجوع ، كما عبّر
السليك بن السلّكة حين قال (١٢) :

وَمَا نَلِيتُهَا حَتَّى تَصْعَلَكْتُ حِقْبَةَ وَكَدْتُ لِأَسْبَابِ الْمَنِيَّةِ أَعْرَفُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ الْجُوعَ بِالصَّيْفِ ضَرَّنِي إِذَا قُمْتُ تَغْشَانِي ظِلَالُ فَاسْدَفِ

أجل ، لقد حاصرت القبيلة بسلطانها طائفة من الشعراء السود والصعاليك
فاستعبدهم وخلعتهم ، وفرضت عليهم ما يشبه (الإقامة الجبرية) بعيداً عن
مجالسها ، فانطلق الصعاليك في فلولات الله يَنْشُدُونَ الحرية والأمن في البراح
مستأنسين بالوحش بديلاً من البشر ، ونُبِذَ السود والأغربة وامْتُهِنُوا
وحُرِّمُوا من كل شيء ، وشَكَّوْا من الحاجة إلى المأكَل والمشرب والملبس ،
وفي مرارة كان يتجدد موتهم كل يوم ، ولم يجدوا في غير الشعر متنفساً لقص
عبوديتهم وتفريغ شِحْنِ الغضب الكظيم ، يقول سحيم عبد بني
الحساس (١٣) :

رَأَتْ قَتَبًا رَثًا وَسَحَقَ عِبَاءَهُ وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسُ عَارِيَا

ويحاول أن يَنْشُدَ سُلُواناً في وهم علاقة إنسانية .. أن يتغزّل ، فتنمُّ
عليه رائحة عُقْدَةِ العبودية من زفيره وشهيقه اللعوني في مثل قوله (١٤) :

وَدَدْتُ عَلَى ابْغَاضِي الرِّقَّ أَنْتِي أَكُونُ لِأَجْمَالِ ابْنِ أَيْمَنِ رَاعِيَا

ويقول (١٥) :

أَمِنْ سُمِيَّةٍ دَمَعَ الْعَيْنَ مَذْرُوفُ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ

الْمَالُ مَالَكُمْ وَالْعَبْدُ عَبْدُكُمْ فَهَلْ عَذَابُكَ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوفُ

ولأنه تغزل بالنساء كغيره من الشعراء تقرر قتله . قال الرواة :
« وقرّبوه من نار كانوا يصطلون عندها ، وجعلوا يجمعون عيدان العرْفَجِ
الرطب ويضربون استه بها ، ويرتجزون عليه ويقولون (١٦) :

أَوْجِعْ عِجَانِ الْعَبْدِ أَوْ يَنْسَى الْغَزْلُ بِالْعَرْفَجِ الرُّطْبِ إِنْ الصَّوْتُ انْغَزَلَ

ولقد كان يدرك إدراكاً غريزياً ما كان ينتظره من قصاص ، كتلك الحيوانات التي تحس بالزلازل قبيل وقوعه ، لكنه لا يرعوي ، فهو لن يخسر شيئاً أيتها حال ، يقول (١٧) :

أَرْقًا وَتَغْنِيظًا وَنَائِيًا وَفُرْقَةً عَلَى حِينَ أَبْصَرْتُ الْمَشَارِعَ تَنْشَفُ
فَلَوْ أَوْقَدُوا نَارًا تَحْشُ بِسَاعِدِي وَكَفِّي مَا أَقْلَعْتُ مَا دَمْتُ أَطْرِفُ

قيل : فلما سمعوا شعره هذا جمعوا له حطباً كثيراً ثم جعلوه حظيرة ضخمة ، ثم أوثقوا العبد برجله ويده ، ثم أدخلوه الحظيرة ، وأرسلوا النار في الحطب فسُمع وإنه ليتقفّع (يتقبض) يقول (١٨) :

لَعَمْرُ أَبِي الْمَذْكُورِ وَالْمُضْرَمِ الَّذِي يَشْبُ وَلَا يَالُو عَلِيَّ جَهَنَّمَا
لئن ورثوها مُشْعِلِينَ لِرَبِّمَا جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مَيْسَمَا

يزعم أنه - وإن بالفوا في إحراقه - قد استدّ منهم وترك على جباههم وأنوفهم وصمة عار لا تمحى ، ويبدو مأخوذاً بهذا التشفي يُسرّي به عن نفسه وهو يُسلم الروح ، يقول أيضاً (١٩) :

إِنْ تَقْتُلُونِي فَقَدْ أَسْخَنْتُ أَعْيُنَكُمْ وَقَدْ أَتَيْتُ حَرَامًا مَا تَظُنُّونَا
لَقَدْ ضَمَمْتُ إِلَى الْأَحْشَاءِ جَارِيَةً عَذْبٌ مُقْبَلُهَا مِمَّا تَصُونُونَا

إلى أن يقول بشماتة لا تخفى (٢٠) :

شَدُّوا وَثَاقَ الْعَبْدِ لَا يَفْلَتَكُمْ إِنْ الْحَيَاةُ مِنَ الْمَمَاتِ قَرِيبٌ
فَلَقَدْ تَحَدَّرَ مِنْ جَبِينِ فَتَاتِكُمْ عَرَقٌ عَلَى وَجْهِ الْفَرَّاشِ وَطِيبٌ

وبدّهي أن مثل هذا كفيل باغضاب الناس ودفعهم إلى ارتكاب حماقة القتل حتى الساعة ، ومن هنا تعددت روايات قتل عبد بني الحسحاس ، ولكنها ظلت مرتبطة بانتهاك الأعراض وجرح الحياء ، إذ يقال في رواية أخرى إنه تغزّل بنساء المسلمين الحرائر بمثل قوله (٢١) :

وبِتْنَا وسَادَانَا إِلَى عِلْجَانَةٍ وَحَقَفَ تَهَادَاهُ الرِّيحَ تَهَادِيَا

تَوْسَدَنِي كَفًّا وَتَشْنِي بِمِعْصَمٍ عَلِيٍّ وَتَحْوِي رَجْلَهَا مِنْ وَرَائِيَا

(وأفحش بكلام آخر) ، فقال له الخليفة عمر (ر) : إنك مقتول ، فسقوه الخمر ثم عرضوا عليه نِسوة ، فلما مرت به التي كان يُتَّهم بها ، أهوى إليها بيده ، فقتلوه (في أرجح الأخبار) (٢١) .

لقد كان « سحيم » نموذجاً لحالة ، وشاهداً على مرحلة . . مرحلة يعلو فيها صوت التوجّع ، ويعلو فيها وقع السياط . . ذلك هو زمن الخصومة بلا محاكم ولا قضاة ، ثمة القوة وحدها ، ولا شيء غير القوة . . بيد السلطة قوة النار والأغلال والاذلال ، ويبد الشاعر صرخة الشعر ، وبقدر الحدّة تكون الحدّة أحياناً ، وأحياناً يكون الانسحاب . وهكذا لم يتشكل من هؤلاء المحدثين أو المبدعين - مع توحيد لون عذابهم - نسيج متوافق ، أو تيار جماهيري واضح ، وإن تبدى لبعض الدارسين أنهم غدوا طبقة وحدتها همومها ، أو اتجاهها ذا طابع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي يُنسب إلى الشعراء « الصعاليك » مثلاً (٢٢) . . فصعاليك الجاهلية كانوا غالباً فرديين ، وبرزوا كعدائين خارج حلبات المجابهة المباشرة ، وخاصة حين مارست عليهم القبيلة أعراف (الخلع) والانكار ، فعقّوها ، وتجردوا للغارات والسلب مفارقين المجتمع التقليدي الذي لفظهم خارج دائرته ، وهكذا فقدوا « التوافق الاجتماعي » وآلوا الوحش في الأودية والجبال وأعماق الصحراء . حتى تمردهم على القبائل كان تمرداً فوضياً لا نظام له ، على حين كان مسلك القبائل يتسم بالكتل والتنظيم . وربما كانت تلك الطليعة المظلومة المنبوذة من الشعراء الصعاليك والسود والأغربة الصوت المبكر الذي ارتفع ضد سلطة القبيلة ونادى بالمساواة والعدل ، وبحث عن المبادئ التي بدا الاسلام استجابة لها ، والتي بدت فيمن تلاهم من الشعراء إرثاً والتزاماً . . ولكي نقف عند من تلاهم وعلت أصواتهم بالشكوى هنا وهناك ينبغي أن نخرج من إطار الفردية لنُفِيء إلى ظل سلطة الدولة ، أو هيكل السلطة بمفهومها الذي نعرف .

مع فجر الاسلام ، يمكن القول : إن مفهوم سلطة الحكم بدأ يَقَرُّ في وعي الناس من خلال إدارة النبي (ﷺ) لأمر من آمنوا بهديه ورسالته ، ومن خلال

توليه قيادة العمليات التنفيذية في نشر الدعوة ، ومقاومة المناوئين مستمدا العون في ذلك مما يوحى إليه ، ومن نُصح أصحابه ذوي التجربة والخبرة والرأي السديد ، وقد جعل الجزيرة العربية ومسلميها كتلة متماسكة متحدة تدين بدين واحد وتخضع لنُظم موحدة تحكم سلوك المسلمين وتسوس أمورهم في سائر مناحي الحياة ومناشطها ٠٠ وبذلك أصبحت القبائل العربية المتفرقة تدين لسلطة مركزية واحدة ويحكمها لأول مرة في التاريخ قانون واحد في العقوبات والمعاملات (٢٣) . وهذه السلطة التي تبدو مزيجاً من الدين والدنيا ، ومن المركزية الفردية والقيادة الجماعية هي التي ينبغي أن نستقرئ مواقفها المقبلة من الابداع والمبدع ٠٠

من الواضح - آنذاك - أن المبدع كان يتمثل بالشاعر والخطيب غالباً ، ولم تكن سلطة الاسلام في حاجة ملحة إلى الشعر ، فما في كتاب الله عز وجل أفضل وأعلى ، وهو الذي يحسن أن يكون معقداً للاهتمام ، ولم يكن في سجع الكهان وخطب الزواج والوصايا والحكم ما يحسب حسابه وأثره ٠ ومن منحي آخر لم يكن الاسلام ضد الشعراء أو الخطيب ، لكن الشعر هو الذي فتح جبهة ، أو ظهر كسلاح في الصراع بين الحق والباطل عندما انبرى شعراء الجاهلية المعادون للدعوة يقودون حرباً كلامية ضد النبي الكريم وضد الاسلام ، بالهجاء مرة ، وبالمجدل والمنافرة مرة أخرى ، من هؤلاء : النضر بن الحارث ، وعبد الله بن الزبير ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة بن أبي وهب ، والأسود بن يعفر ٠ الخ . وقد أدرك النبي (ﷺ) قيمة هذه الحرب الكلامية وما تترك من أثر في نفوس الناس ، فنظّم ما يشبه الاعلام أو الدعاية ، وعني بالرد على شعراء قريش نادياً لذلك بعض الشعراء المسلمين ، فكان الهجاء والقتال متلازمين في نشر الدعوة على حد قول شاعره حسان بن ثابت الأنصاري :

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء
فَنَحْكُم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وممن كلفهم النبي عليه السلام الرد على المشركين والذود عن الدعوة والأعراض : حسان بن ثابت ، عبد الله بن رواحة ، كعب بن مالك ، وروي أنه

صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت عبدالله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت حسان فشفي واشتفى » (٢٥) .

ولم يقف تشجيع النبي الكريم للحركة الأدبية هذه عند الشعراء ، بل تعداهم إلى الخطباء ، قال الجاحظ : « يُعدّ من الخطباء من الأنصار ثابت بن قيس بن شِمّاس ، خطيب النبي ، وهو الذي تولى الرد على خطيب تميم حين قَدِموا على النبي يفاخرونه » (٢٦) .

وإشراك الخطباء في ما يشبه الحملة الاعلامية لمناصرة الدعوة أمر " يسوِّغه الحِجَاج والاقناع ، وأمر " دعا إليه تدني مكانة الشاعر قليلاً بعدما انصرف إلى التكبسب . يقول أبو عمرو بن العلاء : « إن الشاعر كان في الجاهلية يُقدّم على الخطيب لفرط حاجة قومه إليه ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » (٢٧) . ويؤيد هذا الرأي ابن رشيقي في « العمدة » ويسميه « الحِباء » ، والجاحظ ، ويسميه « طُعْمة » (٢٨) .

ولا يعنينا من هذا أن نؤرخ للأدب والنقد ، أو نوازن بين الخطيب والشاعر ، إنما تعنينا الإشارة إلى أن لكل سلطة أدواتها ومصالحها ، وأن الشاعر - إذ يتكسّب - سينافق وينحرف وينحاز ، وقد يوقعنا ذلك في مَهْوَاة التقويم الخاطيء أو الانسياق بظواهر الأشياء بعيداً عن جواهرها . وعند الحاجة يُستعان بالمبدع بالقدر الذي يبدو فيه مناسباً وصالحاً للمرحلة . وهكذا قد يكون الحظ ، أو الحاجة ، أو الموقف سبباً في رفعته وتكريمه ، أو في حجبته وملاحقته ، وليس إبداعه - وحده - هو الضمانة ، وحتى حياديته لا تكون دائماً هي المأمن . . . ولعلنا لا نختلف كثيراً في المساواة بين أولئك الشعراء والخطباء من الناحية الفنية والأدبية الخالصة ، لكن الانتماء أو الاختيار لا يقفان عند القيمة الفنية ، ولهذا كُرِّم شعراء الاسلام بشرف الدفاع عنه ، وحُرِّم خصومهم - عنده - حتى من حق الدفاع عن أنفسهم ، فحُجِب شعرهم ، ونُهِيَ عن روايته . قال صاحب (الخزائن) : إن النبي (ﷺ) نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت :

ماذا ببدر فاعقن قل من مَرَاذِبَةِ ججاج

التي يُحرض فيها قريشاً بعد وقعة بدر (٢٩) . وقد رواها ابن هشام في (السيرة) ، وأولها :

ألا بكيتَ على الكرام مِ بني الكرام أولي المادح

وقال في آخرها : تركنا منها بيتين ، نال فيهما من أصحاب رسول الله (ﷺ) (٢٠) . ونهى عن رواية الشعر الذي هُجِيَ به أصحابه ، قال صاحب (الخزانة) بعد أن روى أبياتاً من قصيدة الأعشى :

شاققتك من قتلة أطلالها بالشطّ فالوتر الى حاجر

وهي التي يهجو فيها علقمة بن علاثة ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل ، في المنافرة المشهورة التي كانت بينهما . قال بعد أن روى من القصيدة أبياتاً . « وقد نهى النبي (ﷺ) عن رواية هذه القصيدة ، ولهذا لم أذكرها كلها » (٢١) .

ونحن لن نتطرف فنزعم أن دوران مثل هذه الأشعار على السنة المسلمين كان سيؤسس لحرية الرأي والقول والديمقراطية ، أو سيكون محرّضاً للمسلمين ليتصدوا للمشرّكين ، وإنما نميل إلى الاعتقاد بأن الحكمة النبوية وجدت مسوّغاً لصرف النظر عن هذا اللغو إلى غيره ، ربّما أخذاً بقوله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . لكن الذي يستوقفنا هو إهدار دم بعض الشعراء ، فقد أهدر عليه السلام دم بعض الهجّائين كعصماء بنت مروان التي كانت تعيب الاسلام ، وتُحرّض على النبي وتقول في ذلك شعراً ، وقتلها سمير بن عدي بن خراشة (٢٢) . وكذلك أبو عَفْكٍ اليهودي قتله سالم بن عمير ابن ثابت (٢٣) ، وكعب بن الأشرف اليهودي كان يهجو النبي وأصحابه ، ويحرض عليهم كفّار قريش في شعره ، ثم خرج إلى مكة بعد « بدر » ، فجعل يرثي قتلى بدر ، ويحرّض قريشاً ، وعاد الى المدينة ، فقال النبي (ﷺ) : « اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت ، في اعلانه الشر ، وقوله الأشعار . ثم قال : من لي بابن الأشرف فقد آذاني ؟ فقال محمد بن سلمة : أنا به يا رسول الله ، وأنا أقتله . قال : فافعل » (٢٤) . وقد كان شَبَبٌ بنسباء الرسول عليه السلام ونساء المسلمين . وكان ممن أمر النبي بقتله عند الفتح : عبدالله بن خطل ،

وكانت له قينتان تغنيان بهجاء النبي (ﷺ) فأمر بقتلهما معه . فقتلت إحداهما ، وفرت الأخرى حتى استؤمن لها النبي فأمنها (٣٥) . وثمة شاعر يقال له (أبا عزة) واسمه عمرو الجمحي ، كان كسابقيه يحرّض على قتال المسلمين ، وقد أسر يوم بدر فأمنه النبي شريطة ألا يُعين عليه بشعره ، فأخلف وعده ، وأسر يوم (أحد) فقال : يا رسول الله مَنْ علي ، فقال النبي : لا يسمع المؤمن من جحر مرتين ، لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعت محمداً مرتين ، فقتله (٣٦) .

وحريّ بنا ألا نتعجل الحكم بقول ما على هذه الاجراءات ، اذ لا بد من تعليل لها تمليه طبيعة الظروف ، أو المرحلة ، أو المجابهة المباشرة والدفاع عن النفس والناس في حالة حرب تستدعي قطع الطريق على محاولات الفساد ، وبحزم رادع . . وفي المقابل علينا أن نضع في حسابنا - انسانياً - مسألة « تأمين » من آمنهم النبي وعفا عنهم مع ثبوت الجرم ، غير ناسين أن النبي (ﷺ) لم يكن ضد الشعر ، ولا ضد الابداع والمبدعين بالمفهوم المطلق لهما ، يعزز هذا ما أثر عنه من قوله : « انما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » (٣٧) . وقال أيضاً « ان من الشعر حكمة » ، كما قال : « انما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب » (٣٧) . وقال : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » (٣٨) . . . واذن لم يكن هدر الدم اجراءً موجهاً ضد المبدع حصراً ، فلقد هدر النبي دم هند زوجة أبي سفيان وآكلة دم حمزة سيد الشهداء ، ودم عبدالله بن أبي سرح لسبب مغاير . هذا فضلاً عن الأقوال التي تناقلتها كتب التراث مقيّدة العديد من الآراء الايجابية للنبي بشعر الشعراء أمثال : زيد الخيل ، وعنترة ، وطرفة ، والنايفة الجعدي (٣٩) . . . وموقفه من كعب بن زهير ، والخنساء ، وزيد بن عمرو وأمثالهم (٤٠) . لكن ما قصدنا اليه من ذكر من أهدرت دماؤهم هو لفت النظر الى حدة الموقف من الشعراء يومذاك ، لا من الاسلام وحده ، بل ربما هددت القبيلة هي الأخرى بقطع لسان الشاعر ، كما نقل عن قريش أنها همّت بقطع لسان شاعرهما ابن الزبعرى لهجائه بني قصي (٤١) . فكيف نحرر هذه الاشكالية المعقدة ، أو نحل هذه المعادلة التي يبدو فيها الشاعر لسان القبيلة المدافع عنها ،

وموضوع فخرها الأول ، كما يبدو - في المقابل - اللسان أو العنق المهدد بالقطع ؟! كيف نتفهم موقف سلطة من الابداع حين تكلف لفيفاً من الشعراء بالدفاع عنها ، وعن مبادئها ، وتبيح - في الوقت نفسه - دماء لفيفاً آخر من الشعراء المناوئين ؟!

نعم ، قد يعلل الأمر بالدفاع عن النفس ، أو بحالة الحرب ، أو بأن هدر الدم كان أمراً مألوفاً ليس بندي بال في المجتمع القديم ! * وقد يكون اجراءً مرحلياً ريثما تُرسم مراسيم ، أو تسنّ قوانين تفصل نصوصها ما يتعلق بحياة الانسان بصفته (هو) جوهر القضية . * أما مسألة الابداع فلا قوانين لها ، ولا نواظم تحميها ، ولن تكون في حسابان من يخلّف هذه المرحلة * وربما - حتى الساعة - لم توقع الأقطار العربية كنهها على حقوق المؤلف !!

في مرحلة الخلافة الراشدية لن يختلف الأمر كثيراً ، وان كان صوت الابداع الأدبي سينحصر إلى حين ، وحدته ستفتر بسبب انشغال القوم بنشر الدعوة والفتوحات . * أما البواعث على اسكات بعض الشعراء فستبقى ، لأن حرص الخلفاء الراشدين على اخماد الفتنة التي كان وراءها الشعر هو استمرار لحرص النبي (ﷺ) ، وكذلك حماية أعراض الناس من قوارص القول ستكون مسؤولية الخالفين . ولن يدخر أي خليفة جهداً في سبيل الحفاظ على سلطته ، متفادياً كل ما من شأنه إثارة القلاقل أو الاخلال بالنظام ، ومن هنا نهى عمر بن الخطاب عن تناشد بعض أشعار الجاهلية التي من شأنها إثارة الأحقاد والعداوات القبلية (٤٢) . * مع أن عمر كان يحب الشعر ، وربما بكى لسماع جيده في بعض الأحيان (٤٢) .

ولأن سلطة الخلفاء مستمدة من الشريعة فقد كانت شبه مقدسة ، وكان ثمة توافق بين الدين والسياسة بحيث يكمل كل منهما الآخر ، ومن راعى ذلك من الخلفاء والحكام حقق مبدأ الاستقامة والعدل ، ومن هان كان شعار العدل أعلى رايات الاسلام وأول ما أوصى الخلفاء بعضهم بعضاً بتحقيقه مقروناً بلفظ « الحق » ، وبه أوصوا العمال والولاة وقادة الفتح ، حتى إن بعض الصحابة كانوا يحضون الخلفاء أنفسهم على ذلك (٤٣) . * وكان لا بد

للعَدل والحق من حاكم حازم لا يفرط بشيء ولا يتفاضى عن صغيرة أو كبيرة، وإلا كانت « الرُّدة » ! وقد كانت فعلاً عند نفر ممن بقي في أفواههم طعم الجاهلية ، أو ظنوا أن في العدل والمساواة تراخياً وضعفاً . على أن مبدأ العدل الذي أنصف السواد الأعظم من الناس جرّاً بعضاً منهم على ما يمكن أن نسميه اليوم « المخالفات » أو « تعدي حدود الله » ، كما شجع بعضاً منهم على مهاجمة السلطة الإسلامية أو رموزها بغير حق . يقول أبو منصور الثعالبي من ذلك على الشاعر أبي الحسن اللحام : « لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه، وكان لا يهجو إلا الصدور (٤٤) ».

ويقول غيره : « وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً عند بعض الشعراء حداً يجعلهم يعمّونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد ، فإذا هم يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودي الرازي في قوله :

لا يصحبن ملوكنا إلا امرؤ لصّ مغنّ مفلس قواد
فلهم لديهم زلفة ومناة ولئن تحرّج واستغف كساد

والبيتان يمسخان الملوك حينئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها » (٤٥) .

والشاعر الحطيئة كان من السابقين إلى رفع الصوت بمثل هذا حين قال للخليفة أبي بكر :

أطعنا رسول الله إذ كان صادقاً فيا عجباً ما بال دين أبي بكر
ليؤرثها بكراً إذا مات بعده فتلك وبيت الله قاصمة الظهر (٤٦)

ومن نماذج هذا الهجوم المؤذي مانجده عند دعبل الخزاعي كقوله (٤٧) :

خليفة مات لم يعزن له أحد وآخر جاء لم يفرح به أحد

وله من مثل هذا كثير . ومن هؤلاء : بشار بن برد ، وسديف ، وأبو العلاء المعري وغيرهم . .

أما ما سميناه بالمخالفات فنقف عليه مقيداً بإشارات عامة كقولهم على أبي الطمحان القيني (ت ٣٠ هـ) : « كان فاسقاً خبيث الدين في الجاهلية

والاسلام» (٤٨) • والنجاشي الحارثي : «فاسق رقيق الاسلام» وجلدَه (علي)
لشربه في رمضان (٤٩) • والحطيئة : « رقيق الاسلام لئيم الطبع » (٥٠) • وشبيل
ابن ورقاء : « أسلم إسلام سوء ، وكان لا يصوم شهر رمضان ، فقالت له ابنته :
ألا تصوم ؟ فقال :

وتأمرني بالصوم لا درّ درّها وفي القبر صوم لا أباك، طويل'

فكيف يوزن هذا وأمثاله في ميزان الحق والعدل وتطبيق الشريعة ؟ بل كيف
يقوّم بالمعايير الأخلاقية في أي عصر أو قضاء ؟! أجل قد نصفق لأبي العتاهية
وهو يقول :

انـي أرى الأسعار أسعار الرعية غالية

ولكن الازراء بالقيم وبالأخلاق العامة يُخرج المسألة من محراب الابداع ،
سواء أكان الابداع التزاماً أو ترفاً ، لأن هذه العبثية خطرة حين تتصدر بديلاً
عن القضايا المصيرية ، ولأنها افتتات تتبرأ جدية العقل منه ، ومحاولة إقامة
تضاد مفتعل بين ما يمكن أن يسمى بالمقدس والمدنس ، ولم يكن بين السلطة
والابداع حاجز أو هوة من هذا القبيل، بل كان بينهما ارتباط ولو بحسبان ،
وارتباط الابداع بالمقدس لم يغفل الواقع ، فالابداع العربي حاول دائماً أن
يجد للواقع وأهله حلولاً ومخارج في النص المقدس ومن خلاله ، وكان الدين
الاسلامي في جوهره غنيّ إبداعياً بكل المعايير والتقويمات والحيوية الفكرية
التي بدت تغتلي بتجليات القلق الفكري وبفرز الفرق والأحزاب والمدارس
والجدل وعلم الكلام والأفكار والاجتهادات والحِجاج •• في الوقت الذي كان
العالم وكأنه بحيرة من القيلولة العقلية والخيول الفكرية • ونستطيع أن نقرر
– بشيء من التسامح – أن قدراً معقولاً من حرية الرأي والاحتكام إلى الحق
كان متوافراً ومُمارساً بين الحاكم والمحكوم ، مبدعاً كان أو من عامة الناس ،
ولتعزیز هذا الرأي يمكن أن نتأمل بعض الأخبار لنستخلص منها وجهاً من
وجوه الحقيقة • من ذلك ما قيل عن أبي المختار (يزيد بن الصّعق الكلابي –
منخضم) إنه شكّا لعمر بن الخطاب عمّال الأقاليم ، فقال :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة فانت أمين الله في النهي والأمر
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى سيفون مال الله في الأدم والوفر
فارسل إلى الحجاج فاعرف حسابه وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر

والمقصود بالحجاج هنا ابن عتيك الثقفي ، عامل الفرات ، وجزء : عامل
سُرَّق . وبعد أن يذكر عمال جنديسابور ، والأبلّة ، وأصبيهان ، ومناذر ،
والأهواز ، والبحرين يقول :

نؤوب اذا أبوا ونغزو اذا غزوا فأتى لهم وفر ، ولنا بذى وفر !
اذا التاجر الهندي جاء بفارة من المسك راحت في مفارقهم تجري
فدونك مال الله لا تتركه سيرضون ان قاسمتهم منك بالشر
ولا تدعوني للشهادة انتني أغيب ، ولكني أرى عجب الدهر

فبادر عمر إلى أموال هؤلاء فأخذ نصفها ، وترك لهم نصفها (٥١) .

وكان النعمان بن عدي (من أسرة الخليفة عمر ، والوحيد الذي تولى له
عملاً في حياته من أسرته) - كان عاملاً له على (ميسان) قرب البصرة ، وبلغه
عنه أبيات يذكر فيها الشرب والمهو ، منها قوله :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادى لنا في الجوسق المتهدم

فلما سمع عمر الأبيات قال : نعم ، والله لقد ساءني ذلك ، ألا إني قد عزلت
النعمان من عمله ، ألا فليبلغه ذلك أي انسان يراه (٥٢) . . . وليس ما نعلق به
على هذين الخبرين سوى قولنا : الحق حق ، والباطل باطل ، وثمة رجال عرفوا
ذلك ، وأنصتوا إلى قائله ، وقد روه حق قدره . وما زال صوت عمر وعقله
رمزاً للحق والعدل في تاريخنا العربي وهو يقول :

« لئن عشت لأسيرن في الرعية حولاً ، فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع
دونني . أما عمالهم فلا يعرفونها ، وأما هم فلا يصلون إلي » . وهو القائل
لعمر بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .
أذن كان هناك تحرراً للعدل ، وحوار مسموع يوشك أن يكون محاسبة للسلطة ،

وإباحة' الكلام للناس تتكلم بحرية حتى (ينفك فكّاها) كما في خبر نافع بن علقمة الذي كان والياً على مكة والمدينة ، وكان شاهراً سيفه لا يكاد يُغمده ، وبلغه أن فتى من (سهم) يذكره بكلام قبيح ، فلما أتى به وأمر بضرب عنقه قال له الفتى : لا تعجل عليّ ، ودعني أتكلم . قال : أو بك كلام ؟ قال : نعم وأزّيد . يا نافع ! وُلِّيتَ الحرمين تحكّم في دماننا وأموالنا ، وعندك أربع عقائل من بنات العرب ، وبنيت ياقوتة بين الصفا والمروة (يعني داره) ، وأنت نافع بن علقمة بن فضلة بن صفوان بن محرز ، أحسن الناس وجهاً ، وأكرمهم حسباً ، وليس لنا من ذلك إلا التراب ، فلم نحسدك على شيء منه ، ولم ننفسه عليه ، فنفسيت علينا أن نتكلم ؟! قال : فتكلم حتى ينفك فكّاك (٥٣) .

والشاعر الراعي النميري يرفع شكوى الى الخليفة عبدالمك بن مروان مصوراً ما يلقاه قومه من عسف الجبابة، يقول :

أخليفةَ الرحمن انا معشر حنفاءُ نسجد بكرة وأصيلا
عربٌ ، نرى الله في أموالنا حقّ الزكاة منزلاً تنزيلا

الى أن يقول :

ان السّعاة عَصَوْكَ حين بعثتهم وآتوا دواهي لو علمت وغولا
ان الذين أمرتهم أن يعدلوا لم يفعلوا ممّا أمرت فتيلاً (٥٤)

وفي اجتماع سعيد بن العاص (والي الكوفة زمن عثمان) بقيادة الجيش وزعماء القبائل زعم سعيد قائلاً : «أن هذا السواد بستان لقريش » ، فقال الأشتر : « أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً الا أن يكون كأحدنا » ، وتكلم معه القوم (٥٥) .

وثمة أخبار كثيرة كهذه نغفلها اختصاراً لنقول : ان ما تدلل عليه في مراميتها هو وجود قدر واضح من حرية القول والمساءلة للسلطة في أمور تتصل بالعدل ، وبالاتفاق ، وبسياسة الناس . . ولا ننكر أن هذه الأخبار تنطوي في تضاعيفها على اشارات غير خافية الى غطرسة بعض ممثلي السلطة وحدة مخاطباتهم ، وتلك سمة عصر لم تكن الدبلوماسية أو آداب السلوك فيه قد

صُقلت كما نعرف اليوم • ومع كل هذا فلا يغرب عن بالنا أن نشير الى أن الرابط بين الدين والدولة اللذين كانت تمثلهما السلطة قد ضعف بعد الخلفاء الراشدين ، وكذلك بدت العلاقة قلقة أحياناً بين السلطة والمجتمع ، لأن روح المطامع بدأت تحل محل العقل والقناعة والتروّي ، وبدوات الجاهلية والفردية راحت - في بطاء وعلى استحياء - تتخفف من دقة الالتزام بمبادئ الشريعة ، اكتفى بعضهم من الدين بممارسة شعائره ، حتى ليتمكن القول ان الحكم اتجه « نحو الاوتوقراطية » بعد أن كان « ثيوقراطياً » • فأبو الأسود الدؤلي - مثلاً - يخاطب حارثة بن بدر الغداني لما أسندت اليه ولاية «سُرَق» من أعمال البصرة قائلاً :

أحار بن بدر قد وليت إمارة فكن جُرْذاً فيها تخون وتسرق
فان جميع الناس اما مكذب يقول بما تهوى ، واما مصدق (٥٦)
ويخاطب النعمان بن العجلان الأنصاري عامل (علي) على البحرين قائلاً :
أرى فتنة قد ألهمت الناس عنكم فذلاً زريق المال ندل الثعالب
فان ابن عجلان الذي قد علمتم بيد مال الله فعل المناهب (٥٧)

يخاطب الأول بالجرذ ، والثاني بالثعلب ، وكأن المسؤولين عنده حيوانات كلبة ، أو كأن الغرض إغلاظ القول ، لا حل المشكلة على النهج السابق • • • كان العقل والشريعة دخلا في بيئات شتوي ، في كفالة الذاكرة • أجل قد يكون هناك اختلاف بين السلطة والمبدعين ، واتساع دائرة هذا الخلاف بينهما قد يؤدي أحياناً الى اتساع دائرة الابداع والكشف ، ولكن لا ينبغي أن تكون الظاهرة الخلافية هدفاً ، لأن الهدف أصلاً الوصول الى حلول ، الى التقاء معرفي ، وليس الهدف الاكتفاء بأن نختلف • لأن من عقابيل الاختلاف تعنت السلطة ، والحد من الابداع ، وعندما نصل الى هذا المأزق نكون كمن يسعى الى حل الخطأ بخطأ جديد • وقد لا تستطيع السلطة المتعنتة قمع الابداع ، لكنها تُشغَلُ بمعالجة قمعه عن قضاياها في الداخل وخصومها في الخارج فيعم الأذى للجميع ، كما يضطر المبدع الى الاحتماء بالرمز والتحايل فتكون بعض الابداعات وليدة قيصرات وقسر ، ويمعن المبدع في التركيز على

ردة الفعل وحدها ، ويتسع الشقاق ، أو النفاق . . وكلاهما يبتعد بنا عن الهدف الفكري الانساني النبيل ، ذلك الهدف المضاع - في مثل هذه الحالات - بين قوة انسانية تتحرك ، وقوة أخرى منافسة تعيقها عن الحركة ، وكل منهما يقطّب في وجه الآخر ، أو يرفع السلاح . . ثم يكون الخلل الصعب . . وفي التاريخ كله كان دائماً ثمة خلل . خلل غالباً ما أفضى الى سلسلة من الهزات والكوارث ، والذي يدفع الى ذلك ما في الانسان من نزعة أو نزعات تفسد الجانب الخير فيه ، وتُحلّ الهياج محل العقل في اصلاح الخلل ، وفي تاريخ السلطة العربية يمكن أن نشير الى شيء من ذلك كمؤشر مبكّر مستعنيين بأحد الشهود . قال الجاحظ : « دخل أبو حمزة الخارجي مكة ، وهو أحد نُسّاك الأباضية وخطبائهم ، واسمه (المختار بن عوف الأزدي) فصعد منبرها متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

ان رسول الله (ﷺ) كان لا يتأخرو ولا يتقدم الا باذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله له كتاباً بيّن له فيه ما يأتي وما يتقي ، ولم يكن في شك من دينه ، ولا في شبهة من أمره ، ثم قبضه الله . وقد علّم المسلمين معالم دينهم ، وولى أبا بكر صلاتهم فولاه المسلمون أمر دنياهم حين ولاه رسول الله أمر دينهم . فقاتل أهل الردة ، وعمل بالكتاب والسنة فمضى لسبيله رحمة الله عليه . ثم ولي عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه وعمل بالكتاب والسنة ، وجبى الفيء ، وفرض الأعطية ، وجمع الناس في شهر رمضان ، وجلد في الخمر ثمانين ، وغزا العدو في بلادهم ، ومضى لسبيله رحمة الله عليه . ثم ولي عثمان بن عفان فسار ست سنين بسيرة صاحبيه ، وكان دونهما ، ثم سار في الست الأواخر ما أحبط به الأوائل » (٥٨) .

قد لا يكون تقويم أبي حمزة هذا دقيقاً ، لكن قوله على عثمان : « كان دونهما » و « سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل » ، مؤشر لا بد أن يستوقفنا ، ونعزز هذا القول بشاهد آخر هو أن عثمان لما ولي الخلافة رد عمه أبا مروان بن الحكم وأعطاه مائة ألف درهم بعد أن كان النبي (ﷺ) طرده من المدينة لأنه كان يفشي أسرارهم للمشركين ، أو لأنه كان يقلده في مشيه وبعض حركاته . . الخ . وولى (عثمان) ابن خالته البصرة ، وأخويه : الكوفة

ومصر ، وابني عمه : الكوفة والمدينة ، وكان معاوية عامله على دمشق . .
وبذر أموال المسلمين في أقربائه . . فقال عبد الرحمن بن حنبل (وهو شاعر
صحابي جليل) :

وأحلف بالله جهد اليمين	ما ترك الله أمراً سدى
ولكن جعلت لنا فتنة	لكي نبتلى بك ، أو تبتلى
دعوت الطريد فأدنيته	خلفاً لما سنه (المصطفى)
ووليت قرباك أمر العباد	خلفاً لسنة من قد مضى
فانّ الأمينين قد بينا	منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهماً غيلة	ولا قسمنا درهماً في هوى (٥١)

ولما قال هذه القصيدة سجنه عثمان (بخبير) حتى تشفع له علي بن أبي
طالب فأطلق سراحه .

وهنا حريّ بنا أن نلاحظ ونسجل أن (عمر) استجاب لقصيدة يزيد بن
الصّعيق الكلّابي فشاطر الولاة أموالهم وعثمان لم يستجب لابن حنبل ، بل
سجنه ، وعمر ولّى عاملاً واحداً من أسرته وكان يظنّ به الصلاح (النعمان
ابن عدي) ثم عزله في أول مخالفة ، على حين ولّى عثمان مجموعة من أسرته
مناصب ، وبذر الأموال فيهم . . فتأمل !؟

ان هذا ليذكر بقول أحدهم : « ان الملك اذا كثرت أمواله مما يأخذ من
رعيته ، كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلع من قواعد بنيانه » . على هذه
الصورة يكون الخلل أحياناً ، والترخّص في الجزئيات يفضي الى الترخّص في
الكليات . ويصلح أن نضيف هنا أنه منذ زمن عثمان بدأت السلطة في ابعاد
معارضيهما ونفيهم ، أو ارسالهم الى جبهات القتال ليحققوا للسلطة انتصارات
تعزز مكانتها ، أو لتتخلص منهم ، كما فعل معاوية الذي كان يقول : ان ذلك
أخفى ، وكان لا يقبل في الشام أي معارض له . وهذا مما أدى الى تفاقم الأمور
وتردي الأحوال والأحكام ، فاختلف ظن الناس وكلامهم حتى قال الشاعر ابن
أديّة :

وقد أظهر الجورَ الولاةَ وأجمعوا على ظلم أهل الحقِّ بالغدر والكفر
فقد ضيقوا الدنيا علينا برحبها وقد تركونا لا نقرُّ من الذعر (٦٠)

ومن لا يستقر من الذعر ليس الشاعر وحده ، وإنما هي حالة سرت في الناس كالوباء ، فبدت القطيعة بين الممكن والمحتمل وكأنها بين الممكن والمستحيل . وبدأت جملة من الأحكام والتشريعات تُعَطَّل أو تعدل ، كما فعل حكام خراسان زمن عمر بن عبد العزيز بأخذهم الجزية ممن دخلوا الاسلام ، ولما نبه الشاعر ثابت فطنة على ذلك أودع السجن (٦١) ، حتى قال عمر بن عبد العزيز قولته المشهورة : « إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » فأبطلها . ولن نفصل في ذكر الحوادث واستعراضها ، فذلك أمر يطول ، وإنما سنحاول أن نشير إلى نقطة مَحَوَّرت علاقة السلطة بالمبدعين وظلت زمناً موضع التقاء ، فالخلفاء - ذوو السلطة كانوا يطبقون أحكام الشريعة ما استطاعوا ، ولأن الشريعة نفسها - بعد لها ومساواتها - كانت حلُم الناس الأسوياء جميعاً ، فمن هنا كانت المصالحة الموضوعية بين الحاكم والمحكوم . . ولما ابتعد أحد الطرفين ، أو كلاهما عن هذه النقطة صارت الأصوات النظيفة تزداد ارتفاعاً وحدة . وصرنا نسمع بعبارة «تعطيل الأحكام» ، وفي قلوب الناس وذواكرهم قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) .

وإذا كانت عبارة «تعطيل الأحكام» تنطوي على انتقاد معتدل لا يخلو من توجيه ، فإن الأمر - بعد ذاك - سيختلف. سيختلف لأن السلطة لم تستجب للانتقاد ، ولكن لأنها ستمعن في محاولة قمع أي انتقاد ، وستبحث عن صيغ تنص على الطبيعة المقدسة لوظيفتها ، وستجد هنا وهناك من يفتي لها بهذا الحق ، وإلا فكيف نفسر تلك الأخبار التاريخية التي تُقيد لنا أوامر وتعليمات ب (سفك الدماء) ؟! فيزيد بن معاوية عندما بعث بابن زياد إلى العراق أمره بسفك الدماء والاستباحة ، فكانت نكبة كربلاء . وحينما بعث يزيد بمسلم بن عقبة المرسي إلى المدينة أمره بسفك دماء أهلها واستباحها ثلاثة أيام فكانت فاجعة الحرّة . وقد سمي بعدها : مُسْرِف بن عقبة (بدل مسلم) وعبد الملك بن مروان حينما قذف أهل العراق بالحجاج أوصاءه أن يسفك دماءهم . . وقيل إن من قتلوا بأمر الحجاج - سوى من قتلهم في حروبه - كانوا مائة وعشرين

ألفاً ٠٠ وزياد بن أبيه والحجاج صرحاً في خطبهما بأنهما لن يعملوا بالشرعية ، بل سيأخذان الطائع بالعاصي ، والمقبل بالمدير . فهل كان الحجاج - مثلاً - ظاهرة فريدة في الحكم ، أو كان ظاهرة مَرَضِيَّة فيه؟ الإجابة ليست في الحجاج ، فما هو سوى سيف السلطة ولسانها . ولا يذهبن بك الظن إلى تعليل ذلك بتمرد الناس ، فالناس لا تتمرد هوية ولهواً . والناس لم تتمرد على عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ، والعُمَران وغيرهما أوصوا بالناس وبأهل الذمة خيراً امتثالاً للأحكام الشرعية الإسلامية . وثمة من عطّل الأحكام وأمر ، أو قام بسفك الدماء ، فابتعدت بهؤلاء سُلطتهم عن الاسلام وعدله الذي حرّم قتل النفس إلا بالحق . والحوار الذي كان هادئاً أو فيه مصلحة بين السلطة والمبدعين سينقلب إلى خصومة يَشْهَر فيها طَرَفٌ سيفه ، وآخر لسانه . ثم يبتدىء الغلط ، ويختل التوازن ، ثم يكون حديث عن الحقوق ، وعن العدالة ، وعن توزيع الثروة ، وعن الحرية وقضايا أخرى . وستكون مصيبة الشاعر المسلم وقوعه في صراع بين نفسه ومثله وعقيدته ، وبين السلطة (٦٢) . فالشعراء والخطباء والمتكلمون والمتحزبون يبحثون في الشريعة عن حق القرشيين أو الهاشميين أو الأمويين . أو عن حق الشيعة أو السنة أو المعتزلة أو الخوارج أو الزبيرية . أو عن حق الرعية عباد الله . والسلطة تبحث في الشريعة نفسها وعند الفقهاء والقضاة . وحتى عند الشعراء عن حقها الخاص ، وإن أعياها التشريع أو النص تسن حقها وفق الحاجة وضرورات المرحلة ، وتُسكت من يرى غير ذلك ، أو يعرف غير ذلك بوسائلها من الترغيب والترهيب . وبهذه الأساليب فرّخت الحالة نماذج من المبدعين الموالين المداحين ، ونماذج من المتمردين الغاضبين الثائرين ، ونماذج من المنافقين ، وربما منذ ذلك الزمن بدأت ظاهرة الازدواجية السياسية أو العقائدية في النمو عند فئة تلهث وراء امتيازات السلطة في الوقت الذي تتخذ من المعارضة زياً ترتديه في المناسبات . كما أفرزت هذه الحالة ألواناً من الابداع الصوفي ، أو الفلسفي ، أو الزهدي ، أو الغنائي اللاهني ، أو الجدلي النقدي ، أو العايب الهازل والساخر . حتى صار الانسحاب من الحياة عند بعضهم اختياراً فيه براعة الخروج من مأزق صعب .

وثمة مبدعون استقروا تفصيلات ما كان يجري وأشاروا بأصابعهم
وألسنتهم إلى مواطن الانحراف والاخلال بأحكام الشريعة كأبي حمزة الخارجي
الذي فنّد في خطبة له ما كان من أمر سياسة الأمويين الحاكمين - على حد
تعبيره - بغير ما أنزل الله ، وما كان من أمر تلك « الشّيْع » التي رماها بالجهل
بالدين والقرآن (٦٢) . وشد ما سترتب على مسألة الجهل هذه من إجراءات
وإشكالات تدفع إلى فضل قول واستغراب واستنكار ، كما في محاولة الكميت
ابن زيد سَوِّق مثل هذا الحجاج محتكماً إلى الشريعة ، مطالباً بالعدل والمساواة ،
يقول :

فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم ففيكم لعمري ذو أفانين مِقُولُ
أهل كتاب نحن فيه وأنتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فكيف ، ومن أتى ، واذ نحن خليفة فريقان شتّى تَسْمَنون ونهزل (٦٤)

وكما في شكوى الراعي النميري التي رفعها إلى عبد الملك بن مروان يُبين
فيها ظلم السُّعَاة (٦٥) ، مما يمثل مظهراً من مظاهر الظلم العام ولفناً لنظر
السلطة إليه . والشاعر عمرو بن أحمر الباهلي يشكو - في قصيدة مماثلة -
عمال الصدقات إلى الأمير الأموي يحيى بن الحكم بن العاص ، ويطلب محاسبتهم ،
يقول :

فابعث اليهم فحاسبهم محاسبة لا تخفَ عينٌ على عين ولا أثر (٦٦)

تلك صورة لمعالجة الممكن باشتراك الابداع والعقل في الحدود المتاحة . .
ومنذ ذلك التاريخ تُطالب السلطة بثل هذه المحاسبة ، ويتحول أسلوب الشاعر
في مطالبته غالباً إلى هجاء ، مما يجعل السلطة تبادر - بردة فعل غير متأنية -
إلى تحسس مقابض السيوف . وتتوزع الأحوال منازع الشعراء ومصائرهم ،
فنجد شاعراً كابن أدية يلجأ إلى الله ويشكو إليه الحصار والذعر (٦٧) ، وشاعراً
كابن قيس الرقيّات يتخذ موقفاً سياسياً حزبياً فيمتدح مصعب بن الزبير ، ويزور
عن بني أمية ، ويصرح بعداوتهم ، وشاعراً كاسماعيل بن يسار يتجاوز
حدود الأدب في شعره ويلمح إلى شعوبيته فيلقي به الخليفة الوليد بن يزيد في
بركة الماء ، ويعيد الخليفة هشام العقوبة نفسها عليه بأسلوب أقسى ، وشاعراً
كالأحيمر السعدي يقول :

واتي لأستحيي لنفسي أن أرى أَمُرَ بجبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبدَ اللئيمَ بعيره وبعيران ربّي في البلاد كثير

والسعديّ هذا وأمثاله يفتحون باباً واسعاً للظاهرة الاقتصادية بما فيها من المساواة وفكرة توزيع الثروة .. مما يترتب عليه اختلاف وتفاوت في مواقف السلطة وتعليلاتها .. هؤلاء يسميهم أحد الباحثين « شعراء الصعلكة الاقتصادية » ، يقول : « كان أصحاب هذا الاتجاه يصدرون عن إحساس عفوي يرفض الفروق الطبقيّة ، ويصورّون وضعهم الاقتصادي السيء وما ينشأ من مشكلات الفقر والحاجة ، وكان لبعضهم كعبد الله بن الحر أهداف سياسية يكافح من أجل تحقيقها ، وهو الذي يقول مصوراً الحالة التي آلت إليها الخلافة :

ألم ترَ أنَ الملكَ قد شينَ وجهه ونبعَ بلاد الله قد صار عوسجا
.. ويبدو أن همه كان مركزاً على استلاب ما تملكه السلطة ، وبخاصة بيت المال ... وكان يصرخ في شعره بأن القسمة هي مذهبه ، ويعني - في المصطلح الحديث - أنه كان اشتراكياً . يقول :

إذا ما غنمنا مغنماً كان قِسْمُهُ ولم نتبع رأي الشحيح المتأرك (٦٨)

ولكن لا ، لم يكونوا يصدرون عن إحساس عفوي ، بل كان إحساساً حاراً بالظلم وبعدم المساواة ، وبالخروج على أحكام الدين ، ومن هنا كان احتداد السلطة المبذرة ضد هذا الإحساس السليم الواعي .. لقد رأى هؤلاء في رموز السلطة إفساداً للسلام ، من هنا يقرر أبو دهب الجمحي بمرارة (٦٩) :

وما أفسد الاسلام الا عصابة تأمّرَ نوّكاهها فدام نعيمها
فصارت قناة الدين في كفّ ظالم اذا اعوجّ منها جانب لا يقيمها

وهذا الإحساس بالظلم الاقتصادي أو السياسي أو الطبقي أو الفئوي ولّد حالات من الرفض والاعتراض ، وحرّض العقل العربي على التفكير والبحث ، والمواقف المتشددة ، مما كشف لنا مدى الحيوية والغنى في حركة الحضارة العربية بكل تجلياتها .. وكان ممن رفضوا الظلم أسماء باقية في التراث والذاكرة

العرييين كعروة بن الورد ، والشنفرى ، وأبي الأسود الدؤلى ، وأبي ذر الغفاري ،
ومالك بن الريب ، والقتال الكلابي الذي يقول (٦٩) :

فما الشرّ كلّ الشرّ لا خير بعده على الناس إلا أن تذللّ رقابها

ومن هؤلاء دعبل الخزاعي ، وعمران بن حِطّان ، وابن حزم الأندلسي
الذي كان عنيف المزاج جسوراً ، هاجم حاشية السلطان والقضاة والولاة والفقهاء
والفساد ، من رشوة وإقطاع ورّبا . . حتى قيل : « لسان ابن حزم وسيف
الحجاج شقيقان » ، ومن هنا صدر الأمر من حاكم اشبيلية المعتضد بن عباد
بمنع تداول مؤلفاته فجمعت وأحرقت جميعها أمام الناس .

ومما شكل همّاً بارزاً لعلاقة السلطة بالمبدع : المرأة العربية ، فالسلطة
وصية - دينياً وأخلاقياً - على الحرائر والعقائل ، والشاعر قد يُسيء إلى
هذه الوديعة ، الأمر الذي كان يعيد الأثر في حياة الشاعر وحرّيته ، وفي
إثارة حفيظة الحكام من أزواج وآباء . والمسألة هنا لم تكن غيرة غريزية
خالصة ، وإنما كانت أيضاً حكماً إسلامياً ينظم علاقة المرأة بالرجل بحيث بدت
هذه العلاقة أقلّ حرية أو فوضى مما سبق ، وصارت كلمات مثل : الزنا
والخيانة ، والمجون ، وهجر القول والتشبيب . . مستهجنة ، وصار الشعراء
يُعاقبون على التعرض للنساء ومحاولات التغرير والمراودة عن النفس ، فنفي
بعض هؤلاء وقتل بعضهم بجرائر من هذا النوع ، كما جرى لسحيم ووضاح
اليمن الذي قتله الوليد تلك القتيلة الفظيعة ، وأبي العتاهية الذي تغزّل
بسعدى مولاة بني معن بن زائدة فتصدى له مولاها عبد الله بن معن وأنزل
به عقاباً بضربه مائة سوط . وتغزّل بجارية من جواري زوجة المهدي فأمر
بضربه مائة سوط وسجنه . ثم دعا الرشيد بعدها أبا العتاهية إلى معاودة حياة
اللهو والمجون والتغزل فامتنع ، فضاق الرشيد بامتناعه وأمر بضربه
وحبسه (٧٠) . . فيالبؤس الشاعر ! إن تغزل ضُرب وسُجن ، وإن امتنع عن
التغزل ضُرب وسُجن !! وخصي بعضهم كالشاعر أبي المسك كافور
الليثي الصوري (نسبة إلى صور . ت ٥٢١ هـ) وكان أحد الأحباش الخصيان
حكمت عليهم الارستقراطية العربية بهذا النوع من البوار الآدمي (٧١) . ومن
هؤلاء الذين عوقبوا لهذا الغرض : الأحوص ، وضابئ بن الحارث البرجمي .

ويتساءل المرء : ألم يكن لمثل هذا التضيق بعض الأثر على من قتلهم سلطان الحب أمثال عبد الله بن العجلان النهدي ، وعروة بن حزام ، وتوبة بن الحمير ، وجميل بن معمر (جميل بثينة) وقيس بن ذريح (قيس لبنى) ، وقيس بن الملوّح (مجنون ليلى) ، هذان القيسان اللذان ظلا يهذيان بحبهما حتى انتهايا بالموت ! . إن الأمر محوج إلى كثير من التأمل والتحري والمدارسة .

ومن الخطوط العريضة لعلاقة السلطة بالابداع - اقتصادياً - : ميزانية الابداع ، إن صح التعبير . فبيد السلطة مفاتيح بيت مال المسلمين ، وإليها ينتهي الفيء والخراج والجزية والغنائم ، فهي إذن مركز المال وقوته ، وباب الرزق كما يقال . فهل كانت السلطة تخصص ميزانية للابداع والمبدعين ؟ أو للبحث العلمي والفكري والفني ؟! النصوص التشريعية لم تأت على تفصيلات صريحة في ذلك ، مما أبقى الأمر متروكاً لاجتهاد السلطة التي رسمت الانفاق في وجوه نستنتجها من الأخبار والروايات ، فنجدها تكاد تتلخص في الأعطيات ، والصلوات ، والجوائز ، والمكافآت ، والرسوم التي تعادل الرواتب ، وفي الانفاق العام للغرض العلمي كما يبدو زمن العباسيين . هذا إذا تركنا وجوه الانفاق الشرعي المعروفة جانباً .

كان الابداع ينال حصته في أعطيات الشعراء والعلماء والمغنيين ، وكانت الرسوم تُعطى للأدباء ، وبصفة خاصة لمؤدبي أولاد الخلفاء والأمراء كرواتب يومية أو شهرية أو سنوية مرسومة محددة ، أما الصلات والمكافآت والجوائز فقد كانت الشيء الوحيد الذي لا يمكن إحصاؤه أو الاحاطة به في تاريخنا العربي . وأما الانفاق الرسمي العام فكان على بعض مرافق العلم ، كدار الحكمة (بيت الحكمة) ، والبيمارستانات والمساجد ، والترجمات وعلم الطب والفلك وأمثالها . . . وكان للاغداق على الشعراء بخاصة ما يعلله ، فنصيب الشاعر من المال كان بقدر حلاوة لسانه أو مرارته : إن مدح وأجاد فهز أعطاف الممدوح أخذ بقدر الأريحية ، وإن هجأ فأوجع اتقى لسانه بمثل ذلك ، وإن رثى أو انتصر لحزب أو فئة ولقي شعره هوى كوفىء على ذلك ، أما مكافآت الابداع الصّرف لذاته فأخبارها نادرة . يقول آدم متر في شاهد من ذلك : «وكان

العلماء الكبار يأخذون أرزاقاً من السلطان ، وكانوا فريقين : فقهاء وعلماء ،
وثمَّ فريق ثالث أكثر رزقاً ، وهم الندماء الذين يجالسون الحضرة» (٧٢) .

فهل كان مثل هذا السخاء تكريماً للابداع وتشجيعاً للمبدع؟! لا ، بل كان
عنواناً لرضا الحاكم ، ومقياساً لمزاجه وعاطفته ، لا ترجماناً لعقله وتفكيره ،
وإلا فماذا يعني كون الندماء أكثر رزقاً؟ والعقلاء القلائل من الخلفاء والأمراء هم
الذين زهدوا في تلك المبالغات المدحية ولم يكثرثوا لغير إحقاق الحق كعمر بن
عبد العزيز ، على حين كان هشام لا يعذر الشاعر المتغيب الذي لا يفد لمدحه
وتقديم فروض الطاعة وتعظيم السلطان (٧٣) . ولكنه أطلق الفرزدق من سجنه
خوف لسانه . وقضية خوف اللسان هذه كانت مؤشراً لآثر الشعر في الحكماء ،
ومسرباً للانفاق السلطوي بغير اقتناع ، مما ولد موقفاً لا يخلو من ضغينة ضد
هذا الفن ، على أن بعض الحكام استثمروا قوة التأثير الشعرية فوظفوا الشعراء
للدعاية لهم ، والشاعر من هذا النوع لم يكن يهمه ما يقول « إذا أدى ذلك إلى
كسبه وترفيهه ، فلا نعجب إذا قرأنا أن (سكماً الخاسر) كان يُعد مراثي لكبار
العظماء قبل أن يموتوا ، ويبكيهم قبل أن يرحلوا عن هذا العالم ، ما دام الأمر
قضية كتابة قصيدة لقبض ثمن » (٧٤) . ومن مظاهر استثمار السلطة الابداع
لخدمتها ما سنه الرشيد في أمر الخطابة ، إذ طلب إلى الأصمعي أن يُعد لابنه
الأمين خطبةً يخطب بها يوم الجمعة ، كما طلب إلى اسماعيل اليزيدي وابن
أخيه أحمد أن يُعدّا خطبةً مماثلة يخطب بها المأمون ، وبذلك سنّ للخلفاء أن
يخطبوا بكلام غيرهم . . . ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية
والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا مع مرّ الزمن يخطبون بكلام غيرهم (٧٥) .

ولا يغرب عن البال أن استجابة المبدعين في كل مجال لرغبات الحكام قد
قلّلت من قيمة إبداعهم ، ومن تأثيرهم في النفوس ، وفي الوقت نفسه فتحت
باباً للنفاق والمرااة والملق ، ارتاده النابغة وتبعه كعب بن زهير ومن لحق
بهما ، مع اختلاف لا يُجهل في المنزع والنية وخبيء الطوية . . . وبقي الباب
مفتوحاً حتى قال يحيى البرمكي : « العجب للسلطان كيف يُحسن ، ولو أساء
كل الاساءة لوجد من يزكيه ويشهد بأنه محسن ! » (٧٦) .

ولا تلتفت كثيراً الى ما قاله الدكتور شوقي ضيف : « وقد يكون الخليفة سيء السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء .. لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وانما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينيه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفاتها لعله يثوب الى طريق الرشاد » (٧٢) . إذ لو كان الأمر كذلك لسبق اليه الشعراء الصالحون ، أولبثت الخلفاء عن الفقهاء والعلماء قبل بحث بعضهم عن المغنين والندماء . ثم كيف نتصور أن مسؤولاً كالأمين تكتب له خطبة الجمعة سيكون بهذا القدر من الحصافة والحرص والتدبر ليتأثر كثيراً بمرامي الشعر ؟ أجل كان لمثل هذا أثره في مرحلة سابقة ، وعند خليفة كعبد الملك الذي كتب الى الحجاج - وقد بلغه أنه لا يراعي الشعراء - قائلاً :

« .. فقد بلغني عنك أمر كذب فراستي فيك ، وأخلف ظني بك ، من إعراضك عن الشعر والشعراء ، فكأنك لا تعرف فضيلة الشعر والشعراء ومواقع سهامهم ؟! أما علمت يا أخا ثقيف أن بقاء الشعر بقاء النعم ، وتمام المجد ، ودلائل الكرم ، وأنهم يحضون على الأفعال الجميلة ، وينهون عن الأخلاق الذميمة ، وأنهم سنوا سبل المكارم لطلابها ، ودلوا العفاة على أبوابها ، وأن الاحسان اليهم كرم ، والأعراض عنهم لؤم وندم ، فاستدرك فرط تفريطك ، وامح بصوابك وحي أغاليطك ، والسلام » .

لقد كان عبد الملك يدرك جيداً قيمة الشعر والشعراء ، الأمر الذي لم يكن يدركه من الخلفاء العباسيين الا القليل ، لأن طبيعة حياتهم اللاهية غالباً لم تكن تتيح لهم وقتاً كافياً لاستيعاب التراث كمن سبقهم . ومن هنا يمكن القول ان لثقافة السلطة أثراً كبيراً في تقدير الابداع والمبدع ، فبقدر ما يكون الحاكم مثقفاً عالماً أو أديباً تكون رعايته للعلم والابداع ، كالمأمون ، والمهدي والرشيد وسيف الدولة الحمداني الذي كان ينظم الشعر ، وكان يؤمّ بلاطه أكثر من اثني عشر شاعراً ، فضلاً عن اللغوية كابن جني وابن خالويه وأبي الطيب اللغوي الحلبي ، والفيلسوف الفارابي الذي حباه براتب شهري .. ونجد مثل هذا عند صاحب بن عباد ، وابن العميد ، والفاتح محمود الغزنوي

وغيرهم .. وكان تقدير هؤلاء للابداع محاولة جادة لجعل الفكر العربي والحضارة العربية بمستوى الانتصارات الحربية ، وبمستوى الحضارات المجاورة ، وقد كان ذاك فعلاً .. ولو كان الخلفاء وممثلوهم جميعاً ، والشعراء ونظراؤهم من المبدعين .. احتكموا جميعاً الى العقل ، ونما في نفوسهم الاحساس الاصيل بالمسؤولية لكننا غيرما نحن عليه اليوم .. ونحن بهذا التحسّر نطمح الى المثالية ، ونسعى ألا يتسرب اليأس الى ما بالنفوس ، وفي الوقت ذاته لا نريد أن نقلل من شأن من نهضوا بمسؤولية السلطة في تاريخنا العربي ، فثمة من كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ، ويباشرون شؤون الأمة - صغیرها وكبیرها - بأنفسهم ، وخاصة زمن الأمويين ، وبعض العباسيين . وبورك الشعراء الذين تغنّوا بانتصاراتهم ، وخلدوا في نفوسنا وذواكرنا قيّمهم وأمجادهم .

ولكننا نذكر في الوقت نفسه كيف انصرف كثير منهم الى العبث واللغو غافلين عن مسؤولياتهم في رعاية الدولة ، كالوليد بن يزيد وعدد كبير من الخلفاء العباسيين يربي على اثني عشر خليفة يبدؤون بالمهدي حتى المعتز .. كانوا جميعاً يلهون كثيراً ويشربون ، وتقلدهم الحاشية في ذلك .. ثم كانوا يقيمون الحدود على شاعر يذكر - مجرد ذكر - صفة الشراب في شعره . وكان الشرع استثنى ذوي السلطة من حكم شارب الخمر . فكان عند بعض الخلفاء تقليداً ، وعند بعض الشعراء جريمة ! . ان هداما لوّث عقول القوم برياح العبثية العابقة في فساد الأمكنة ، فكان الغياب والانسحاب والتراخي ، وتناهت قلوب الناس مسارب وقنوات أفضت الى التذبذب الذي يحار المرء في تحليله ، كما كان من شعراء الانتماء : كثير ، والكميت ، وابن قيس الرقيات ، وعبدالله بن الزبير الأسدي .. وتصاغرت بعض النفوس المحسوبة على الابداع حتى أصابتها لوثة الهبوط في الفكر والكرامة والمعتقد ، فلجأت الى المبالغات المهينة ، كقول الشاعر ابن هانئ الأندلسي للمعز لدين الله الفاطمي (٧٨) .

ما شئت ، لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم ، فأنت الواحد القهار
وكانما أنت النبي محمد وكانما أنصارك الأنصار

وربما من هنا غرقت بعض نوى الابداع وملكاتة في الزهد والصوفية

والعبثية وغير ذلك من الحالات المرّضية التي لم تألفها عزة العرب ومنعتهم وأنفتهم ، ولا عزة الاسلام وما بعث في النفوس من الكبرياء ويقين الحق . . وإن في بعض مظاهر الزهد والمسكنة والدروشة لتزييفا للابداع واحتواء له - على لغة العصر - وإنما الابداع وليد قلق يصل حافة الثورة ، أو حد الشهادة أو الخلق ، كي لا تكون الأشياء الجميلة مخربة ، والحريّة مقموعة ، والحق مختنقاً . . إنه موقف ضد كل من يجعل الحياة ، أو ما يجعل الحياة غير بديعة .

إن التكسب والتزلف والممالة والخوف والاغراء بالمناصب والترفع، والتوزع في شراذم متفاوتة الميول والآهواء والمعتقد ، والتعلل بالحاجة والعجز وفوات الآوان . . . كل ذلك قد جرف القوى المبدعة وبعثرها كريش بجعة مزقتها النسور ، وأحال المبدعين إلى نماذج فردية حانقة ، ومزاجية ، وغير منتمية بالمعنى (الايديولوجي) ، في مقابل نظام متكامل وأنساق متعاقبة من السلطات الراسخة بكل ما فيها من إيجاب وسلب . . مما هيأ ظروفاً مواتية لسلطات غير منصفة تعاقبت على ظلم كثير من المبدعين بغير حق أحياناً ، وأحياناً بتعسف في استخدام الحق الذي تعرفه الجماعة ، وفي أحيان قليلة تم الظلم والنفي والتشريد والتجويع والسجن والقتل بغير حق على الإطلاق ، وكان السلطة لم تكن أكثر من وظيفة تأديبية . وإن الذين لوحقوا وظلموا كانوا من الكثرة بحيث يتخرج المرء من تعدادهم (*) . . ولن نعيد قص ما في كتب التراث من أخبار غيلان الدمشقي ، والحلاج ، وابن المقفع ، وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس ، وأعشى همدان ، وأبي جلدة اليشكري ، وعمران بن حِطّان ، والكميت ، وابن مفرّغ الحميري ، ومنصور النمري ، وابن عمار ، وابن الأَبّار ، وسُديف ، وابن الخطيب ، وأبي نصر الفارقي ، والأبيوَردي ، والباخرزي ، وجعفر المصحفي ، وابن زمرك ، والسُّهْرَوَردي ، والطُّغْراني ، والعكوكيّ (علي بن جبلة) وحمام عجرد . . كل هؤلاء وغيرهم مضوا قتلاً أو غيلة ، أو في ظروف غامضة كظروف محمد بن القاسم الثقفي ، وموسى بن نصير وطارق بن زياد . . وهذه أمثلة لا إحصائيات ، أمثلة تتوزع أزمنتها وأمكناتها وأسبابها ، ولكن السلطات كانت وراءها . . أما من سجنوا فكانوا أكثر من ذلك ، وأقل من هؤلاء وأولئك من عوقبوا بالنفي والجلد والابعاد . . ومورس على

كثير من المبدعين التجسس والمراقبة والاستماع إلى الوشائات عنهم، والاستجابة للكيد وإيغار الصدور .. حتى صدرت عن الخلافة قوانين شبيهة بقوانين الطواريء الحديثة تنص صراحة على كتم الأفواه ، كما في إصدار الخليفة القادر كتاباً ضد المعتزلة أمرهم فيه بترك الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقاتلات المخالفة للإسلام .. وأمر بلعنهم على المنابر .. وصار ذلك سنة في الإسلام^(٧٩) .. ومن المتوقع - أمام هذا كله - أن تنشأ بين القوم فلسفة الانتماء أو الاحتماء .. بعيداً عن السلطة أو في أحضانها .. وأن ينشأ بجانب ذلك اتجاه يمكن أن يمثله قول جحظة الشاعر :

إذا كان عندي قوت يوم وليلة من الراح ينفي الهمَّ عني إذا اتسع
فلستَ تراني سائلاً عن خليفة ولا عن وزير للخليفة ما صنع^(٨٠)

أو اتجاه يمكن أن يمثله قول إبراهيم بن هلال الصابي (الكاتب) على السلطان :

وقد علم السلطان أنتي أمينه وكاتبه الكافي السديد الموفق
فيُمنائي يمناه ولفظي لفظه وعيني له عين بها الدهرَ يرمق^(٨١)

ونحن لن نستخلص من عرضنا السريع هذا حكماً عاماً نقرر به أن السلطات العربية كانت أميل إلى الشدة والتضييق على المبدعين ، أو نجعل منها وحدها سبباً في الحد من الابداع ، فثمة سلطات وفرت قدراً طيباً من الحرية للمبدعين وأقامت جسوراً معهم توشك أن تكون من أسباب المصالحة ، كما فعل المأمون الذي قرب إليه كثيراً من الجدليين والنظّار والفقهاء والزنادقة وأهل المعرفة .. وكان يناظرهم هو بنفسه أحياناً^(٨٢) .. وفكرة الحوار هذه تنمّ على تفهم لطبيعة الحركة الفكرية وتشجيعها ، وهذا تقليد إسلامي عريق ، كان مسلکاً مألوفاً في الأوائل .. ومن المفارقات التي تدعو إلى التأمل أن المبدعين القلائل في عصور الامارات وجدوا مثل هذا المناخ المتساهل أحياناً ، وأكثَرِمَ الأدباء ، ولعل حاجة السلاطين المتأخرين إلى الثقافة العربية الإسلامية هي السبب في ذلك .. وهذا يشير إلى أن الحياة العقلية بقي لها حضورها

واستقطابها الناس على حساب القيم الروحية والقومية والفروسية وغيرها .
أو استمرت في ازدهارها بقوة الدفع السابقة الأصلية . . . بَيِّدَ أن سلطان الهوى
كثيراً ما تورم فصار كمنطاد منفوخ يطفو فوق سلطان الدين والعقل ،
وتفنن في حبك تهم قاتلة لبعض نوى الفكر العربي الأصيل مما أفقدنا ما يعجز
العقل عن تقديره وتصوّره لو أتيح له أن يخرج إلى النور سليماً غير جهيضم أو
ظنين . . .

يمكن القول في النهاية ان علاقة السلطة بالابداع ترسمها القوة ، وظفر
أحد الطرفين بالآخر وتغلبه عليه - إن كان ثمة مواجهة - يتوقف على قوة أي
منهما . . . والمبدعون لن يحققوا طموحاتهم أو مشروعهم الانساني بغير قوة ،
والسلطة لن تحقق إرادتها أو امتيازاتها بغير القوة ، ولكل أسلحته . . . ولا بد أن
ينتصر العقل الذي به تُصنَّع السلطة ويُنجز الابداع .



□ الحواشي والتعليقات :

- ١ - كثر القول والتفصيل في مفهوم الابداع في الندوة التي عقدت في مقر اتحاد الكتاب العرب بدمشق بين ٢٥ - ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٩ ، بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .
- ٢ - الابداع العام والخاص : ٧ - ٨ ترجمة د. غسان أبو فخر . سلسلة عالم المعرفة رقم ٤٤ الكويت ١٩٨٩ .
- ٣ - نفسه ص ١٣ ، وص ١٩ .
- ٤ - معجم العلوم الاجتماعية : ٣١٥ (بتصرف) . اعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥ .
- ٥ - انظر القصة في « الشعر والشعراء » لابن قتيبة في الصفحات : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، تحقيق وشرح : احمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ، والخبر في مظان أخرى كالآلغاني ، ومعجم الأيلدان ، والغزاة وغيرها ، مع اختلاف في التفصيلات وأسماء .
- ٦ - الشعر والشعراء : ٢٦٨ .
- ٧ - انظر « انصبيه انقبالية » للدكتور احسان النص : ١٦٣-١٦٤ دار القنطرة العربية - بيروت .
- ٨ - الموضع السابق ، وانظر الشعر والشعراء : ٢٣٤-٢٣٥ .
- ٩ - انظر : « الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي » للدكتور عبده بدوي : ٦-٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ - القاهرة .
- ١٠ - الموضع السابق : ١٠-١١ .
- ١١ - نفسه : ٥٧ .
- ١٢ - الألغاني ١٨/١٣٥ .
- ١٣ - ديوانه : ٢٥ بتحقيق عبدالعزیز الميمنى - القاهرة
- ١٤ - ديوانه : ٥٦-٥٧ .
- ١٥ - ديوانه : ٦٢ .
- ١٦ - ديوانه : ٥٧ .
- ١٧ - ديوانه : ٦٤ .
- ١٨ - ديوانه : ٦٤-٦٥ .
- ١٩ - ديوانه : ٥٩ .
- ٢٠ - نفسه : ٦٠ .

- ٢١- نفسه : انصفحات ١٥ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، وانظر الخبر في « الشعر والشعراء » : ٤٠٩ .
- ٢٢- انظر مثلاً : (انشابت والمتحول - الأصول) لأدونيس : ٢٥٨ ط ١ - دار العودة ١٩٧٤ .
- ٢٣- انظر : « اهجاء والهجاؤون في الجاهلية » : ١٨٠ ، د. محمد محمد حسين ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٩ ، ط ٢ .
- ٢٤- انظر بعض التفصيلات عن ذلك في « العصبية القبلية » : ٢٠٠-٢٠٨ والسيرة النبوية .
- ٢٥- الأغاني (بولاقي) : ٢٩/١٥ .
- ٢٦- عن : « الهجاء والهجاؤون » : ١٩٢ .
- ٢٧- البيان والتبيين المجاظ : ٨٣/٤ (هارون ١٩٤٨-١٩٥٠) .
- ٢٨- انظر « العمدة » لابن رشيقي القيرواني ٦٤/١ ، و « العصبية القبلية » : ١٦٧-١٦٨ .
- ٢٩- خزائن الادب للبغدادي : ١٨٢/١ (ط الحلبي ١٩٣٠) .
- ٣٠- السيرة النبوية : ١٢/٣ (ط الحلبي ١٩٣٦) .
- ٣١- الخزائن : ٣٦٦/٢ ، وانظر : الاسلام والشعر : الصفحات
- ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ (مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٤) .
- ٣٢- السيرة : ٢٨٦/٤ .
- ٣٣- إمتاع الاسماع للمقريزي : ١٠٣/١ (ط لجنة انتايف ، مصر ١٩٤١) .
- ٣٤- نفسه : ١٠٨/١ ، وطبقات فحول الشعراء : ٢٨٢/١ (تج : شاكر ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٢) .
- ٣٥- السيرة : ٥٢/٤ .
- ٣٦- طبقات فحول الشعراء : ٢٥٥/١ ، وقوله (عليه السلام) : لا تمسح (بضم الحاء) : أي مستقبلاً ، بمعنى النفي .
- ٣٧- العمدة : ٢٧/١ .
- ٣٨- نفسه : ٣٠/١ ، وثمة اقوال أخرى ضد الشعر في الموضع نفسه ٢٨/١ ، وتاريخ الطبري : ٥٧٥/١ .
- ٣٩- انظر مثلاً : الشعر والشعراء : ٨٩/١ ، ٢٠٥/١ ، وطبقات فحول الشعراء : ٩٩/١ .
- ٤٠- انظر مثلاً : طبقات فحول الشعراء : ٩٩/١ ، والشعر والشعراء : ٨٩/١ ، والاسلام والشعر : ٧١-٧٢ .
- ٤١- طبقات ابن سلام : ١٩٧ .
- ٤٢- انظر « الأغاني » ١٤٠/٤ ، و « اشاعر الاسلامي تحت سلطة الخلافة » الصفحات : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ للدكتور داود سلوم ، (عالم الكتب - النهضة - ط ٢ - ١٩٨٥) .
- ٤٣- انظر مثلاً : رسالة عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري في أصول القضاء ، وكان أبو موسى عامله على الكوفة (جمهرة رسائل العرب : ٢٥٢-٢٥٣) ورسالة أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر (جمهرة رسائل العرب : ١٥٩/١) .
- ٤٤- يتيمة الدهر للمثعالي : ١٠٨/٤ .
- ٤٥- د. شوقي ضيف « عصر الدول والامارات » : ٥٩٥ (دار المعارف بمصر ١٩٨٠) .
- ٤٦- ديوانه : ٤١٣ (دار صادر ١٩٦٧) والمبنيين روايات مختلفة تجدها في الأغاني ، والكمال ، والطبري ، والعموي (معجم الادباء) ، والخزائن : ٤٠٩/١ ، ٤١٠ .
- ٤٧- انظر مثلاً : العصر العباسي الاول ، د. شوقي ضيف : ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٠٦ (دار المعارف بمصر ، ط ٨) .
- ٤٨- الشعر والشعراء : ٣٠٤/١ .
- ٤٩- نفسه : ٢٨٩/١ .
- ٥٠- نفسه : ٢٣٩/١ .

٥١- البلاذري « فتوح البلدان » : ٣٧٧ (دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣) . وهي في الاصابة : ٦٧٦/٣ مع شرح لها ،
وفتوح مصر : ١٤٧-١٤٨ (ط. ليدن ١٩٢٠) مع اختلاف في الرواية .

٥٢- فتوح البلدان : ٣٧٨ ، وسيرة ابن هشام ٣٦٦/٢ ، مع اختلاف يسير .

٥٣- البيان والتبيين ٤٠٤/١ (ط الاستقامة ١٩٥٦) .

٥٤- جمهرة اشعار العرب للقرشي : ١٧٢ ، وخزاة الادب : ٥٠٢/١ .

٥٥- الطبري : ٣٢٣/٤ ، والاغانى : ١٤/١٢ .

٥٦- البلاذري - فتوح البلدان : ٣٧٢ .

٥٧- الاصابة : ٥٦٢/٣ .

٥٨- البيان والتبيين : ١٣٩/٢ ، ١٤٠ (ط الاستقامة) .

٥٩- الاغانى : ٢٦٨/٦ (الدار المصرية) ، والاستيعاب في معرفة الاصحاب : ٤١٠/١ .

٦٠- شعر الخوارج ص ٥ ، د. احسان عباس (ط. ٣ - دار الثقافة ١٩٧٤) وانساب الاشراف للبلاذري : القسم الاول ،
المجلد الرابع ص ١٥٧ (ط القدس ١٩٧١) .

٦١- انظر « الكامل في التاريخ » لابن الاثير ، حوادث ١٠٩-١١٠ ، ص : ٥/١٤٢ وما بعدها .

٦٢- انظر : « الشاعر الاسلامي تحت سلطة الخلافة » ص ١١-١٢ .

٦٣- البيان والتبيين : ٢٢٢/٢ (ط هارون) .

٦٤- ديوان الكميت : ١٤١ .

٦٥- انقصيدة ٨٦ بيتا في « جمهرة اشعار العرب » : ٩١٢/٢ (تحقيق : محمد علي البجاوي ، ط ١) .

٦٦- مقتطفات من الادب الاسلامي والاموي : ٢٢٠ للاستاذ سليمان الغش - جامعة دمشق ١٩٨٢ .

٦٧- انظر « شعر الخوارج » : ٥١ .

٦٨- الثابت والمتحول - الاصول : ٢٥٨ .

٦٩- عن السابق : ٢٥٨-٢٥٩ .

٧٠- العصر العباسي الاول : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

٧١- الشعراء السود : ٢٠٣ ، وتجدر الاشارة الى ان الاسلام حرّم الغصاء ، فقد روي عن النبي (ﷺ) : « من قتل
عبداً قتلناه ، ومن جدد عبداً جددناه ، ومن اخصى عبداً اخصيناه » . / حاشية المؤلف .

٧٢- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ٣٤٧/١ ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريصة ، ط ٥ ، دار الكتاب
العربي - بيروت .

٧٣- الشاعر الاسلامي تحت سلطة الخلافة : ٨٥ .

٧٤- نفسه : ٩٩ ، ١٠٠ .

٧٥- انظر « العصر العباسي الاول » : ٤٥٢ .

٧٦- العقد الفريد : ٦٨/٥ .

٧٧- العصر العباسي الاول : ١٦١ .

٧٨- مختارات من الشعر الاندلسي للدكتور رضوان الدايدة : ٣٤ (ط المكتب الاسلامي) .

٧٩- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ٣٨١/١ .

٨٠- المختار من محاضرات الادباء للراغب الاصفهاني : ٩٧/٣ . دمشق - وزارة الثقافة ١٩٩٠ .

٨١- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ٤٤٨/١ .

٨٢- العصر العباسي الاول : ١٠٦ ، و ص ٨٢ .

□ إشارات سريعة موجزة :

غيلان الدمشقي (ت بعد ١٠٥ هـ) كان كاتباً بليغاً وواعظاً فذاً ، ورأساً من رؤوس (القدرية) و (المرجئة) الذين كانوا يرفضون الحكم على أي من المسءلين بالكفر ، ويتركون أمره لله ، وبالتالي يرون أن الإمامة أو الخلافة تصلح في غير قریش . وقد لاحق هشام بن عبد الملك « غيلان الدمشقي » ، ومثّل به شرّاً تمثيلاً إذ صلبه على باب كيسان بدمشق . وقيل إن الامام الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله (ثمة تفصيلات عنه في « الحيوان » للمجاحظ وفي « المعارف » لابن قتيبة ، و « الملل والنحل » الشهرستاني) .

والعلاج : كان صوفياً من الغلاة ، قتل سنة ٣٠٩ هـ. قتلته شنيعة ، ف ضرب ألف سوط وقطعت يداه ورجلاه ، وأحرق بالنار . ويذكر له ابن النديم في « الفهرست » أكثر من أربعة وأربعين كتاباً من تصنيفه .

وابن المقفّع : اتهم بالزندقة والكيد للإسلام ، أو أنه كتب أماناً لعم المنصور « عبدالله بن علي » أغضب المنصور بمضمونه وملاه موجدة ، فاعوز الى سفيان بن معاوية المهلبى ، عامله على البصرة حينئذ بقتله ، فقطعته جزءاً جزءاً ورماه في التنّور حتى أتى عليه سنة ١٤٢ هـ أو ١٤٣ ، أو ١٤٥ هـ) - وانظر: (العصر العباسي الأول اشوقي ضيف ٥٠٨-٥٠٩، وص ٣٩٢، وأمالى الشريف المرتضى: ١/١٣٤ ، ط الحلبي).

ويشار بن برد ممن اتهموا بالزندقة حتى قال المهدي: « ما وجدت كتاب زندقة قط » ، إلا وأصله ابن المقفّع أو بشار بن برد . وقيل ان بشاراً هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاءً مقدعاً ، حتى أمر المهدي سنة ١٦٨ هـ - بعد شهادة الشهود بزندقته - بضربه حتى التلف ، ف ضرب سبعين سوطاً مات على اثرها ورمي به في « البطيحة » . (ينظر في أخباره : الأغاني ، ط دار الكتب : ٣/٢٤٣-٢٤٤، والعصر العباسي الأول : ٢٠٦ وغيرهما ، والشاعر تحت سلطة الخلافة : ١١٩-١٢٠ د. سلوم) .

وصالح بن عبدالقدوس ، الشاعر ، قيل : انه كان يعتنق المانوية ، فقتل وصلب على الجسر ببغداد . (انظر: أمالي الشريف المرتضى ١/١٣٤ ، والعصر العباسي الأول : ٣٩٦) ، وطبقات فحول الشعراء : ٩١-٩٢ .

واعشى همدان : ثار مع ابن الأشعث على العجاج ، فلما قتل ابن الأشعث ظفر به العجاج فقتله سنة ٨٣ هـ ، صبراً . ومثله تماماً كان مصير أبي جلدة اليشكري على يد العجاج .

وعمران بن حطان الشاعر ظلّ العجاج يلاحقه من مكان الى مكان حتى مات . والكميت بن زيد انهاشمي قتله عامل (هشام) على العراق . والامام أبو حنيفة قتلته السلطة (الأغاني ١٨/١٠٨ ، الهيئة ٠٠) .

والشاعر يزيد بن مفرغ الحميري شهّر به وعذّب تعذيباً يَجْـبَلُ المرء من ذكره ، وقتل بزجّ مسموم (الأغاني ١٤٣/٢٠) .

والشاعر منصور النعمري أمر الرشيد بقتله ، وكان قد هرب الى الموصل ، وعنده وصل المكلف بقتله الى هناك وجده قد مات لساعته ، فأمر بنبشه ليحرق (الأغاني ١٣/١٤٧-١٤٨) .

والشاعر الأندلسي ابن عمّار قتلته الخليفة المعتمد بضربة فأس (مختارات : ص ٨٤ والداية مرجع سابق) . والشاعر ابن الأبار الأندلسي أمر الخليفة المستنصر بامتحانه ، ثم بقتله ، فقتل قصعاً بالرماح . وقد أحرقت جثته كما أحرقت كتبه (عن : مختارات من الشعر الأندلسي: ١٤١-١٤٢ د. الداية) .

و (سنديق) ، الشاعر الشيعي المعروف ، ذكر ابن عبد ربه في « العقد الفريد » أن الخليفة المنصور كتب الى عامله في المدينة أن يدفنه حياً ففعل . (عن: اشاعر الاسلام تحت سلطة الخلافة - ص ١٠٧) .

وابن الخطيب ، الأديب والمؤرخ الأندلسي اتهموه بالغروج على شريعة الاسلام ، وبالزندقة . وافتى قاضي غرناطة بوجود حرق كتبه ، فجمعت وأحرقت ، وقتل خنقاً في سجنه سنة ٧٧٦ هـ وأخذت جثته وأضرمت فيها النار (اندلسيات: محمد عبدالله عنان - كتاب العربي ص ٦٦ - الكويت ١٩٨٨) .

وأبو نصر الحسن بن أسد الفارقي : الأديب ، العالم، الشاعر ، المصنف .. قتلته أحمد بن مروان صاحب ديار بكر حين أمر بصلبه في حران سنة ٤٨٧ هـ . (الافصح ص ١٤ تح : سعيد الأفغاني - ط الثالثة - بيروت ١٩٨٠) .

والأبيونري : الشاعر الأموي الذي تولى في آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١ هـ) ، سقوه السم وهو واقف عند سريرته سنة ٥٠٧ هـ فخنثته قدامه وتوفي على الأثر ، أو أنه أصابه الفزع حين مثل أمام السلطان ، فارتعد وسقط ميتاً (عصر الدول لشوقي ضيف ٦٠١) .

والبخريزي : الكاتب الشاعر مات قتلاً سنة ٤٦٨ هـ . (عصر الدول والإمارات ٦١٦) .

وجعفر بن عثمان المصعفي ، رجل الدولة ، الوزير الشاعر زمن الخليفة المستنصر (الحكم بن عبدالرحمن) وابنه هشام .. سيق جعفر هذا إلى السجن ، وقضى في سجنه ، وقيل : مات مغنوقاً .

والشاعر ابن زمرك الأندلسي قتل مع أولاده ونفر من أهله في غصبة الأمير (مختارات : ١٦٦-١٦٧ د. الداية) .
والسنهزوري : الفيلسوف اتهم بانحلال العقيدة ، والتعطيل ، وكان يعتقد مذهب الحكماء من المتقدمين كما اشتهر عنه ، فلما وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله بسبب اعتقاده (السابق ٦٢٤) .

والطفرائي الشاعر قتله السلطان محمود السلجوقي بتهمة الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء فاتهموه بالسحر والالحاد ، وأمر السلطان بقتله . (عصر الدول والإمارات ٥٨٥) .

والشاعر العكوك (علي بن جبلة بن مسلم) أمر المأمون بإخراج لسانه من فمائه لأنه مدح أبا دلف العجلي ، وأعرض عن مدح المأمون . (وفيات الأعيان ٣٤٩/١ ، نهاية الأرب للنويري ١٨٦/٣ ، ٢٣٣/١٤) .

والشاعر حماد عجرد ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهم يأنزال العقاب فيه غير أن ابنه المهدي تشفع فيه (العصر العباسي الأول ، لضيف : ٣٩٢) . وهجا حماد والي البصرة ، فقتله غيلة سنة ١٦١ هـ . (العصر العباسي الأول - ص ٣٨٩) .

وابن السكتيت : العالم المغموي المشهور أمر (المتوكل) الأتراك فداوسوا بطنه ، وحمل إلى داره فمات بعد ذلك بيوم ، وقيل : حمل ميتاً في سباط ، ووجه المتوكل من الغد عشرة آلاف درهم ديتة إلى أهله أو إلى ابنه (طبقات النعمانيين واللقونين : ٢٠٣-٢٠٢ ، وفيات الأعيان ٣٩٥/٦ ، معجم الأدباء ٥٠/٢٠ ، وبغية الوعاة ٢٤٩/٢) .

وأبو اسحاق الصابي (ت ٣٨٤ هـ) ، حبسه عضد الدولة ، وسئل فيه ، فقال : « فان عمل كتاباً في مآثرنا وتاريخنا أطلقته » ، فشرع في مجسه في كتاب « التاجي في أخبار بني بويه » . وقيل أن بعض أصدقائه دخل عليه .. فسأله عما يعمل ، فقال : أياطيل أنمقها ، وأكاذيب الفتقها ، فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة ، فأمر بالقائه تحت أرجل الفيلة .. وشفع له مقرر بون .. وبقي في السجن عدة سنين إلى أن تخلص منه . (وانظر : معجم الأدباء ٢١/٢ و ٣٥/٢ ، وعصر الدول والإمارات لشوقي ضيف ص ٤٤٤) .

والشاعر ابن هرمة (ت ١٥٠ هـ) وجه إليه المنصور رسولا في المدينة ومعه ألف دينار وخلعة وأمره أن يأتي ابن هرمة ويستنشده قصيدته في مدح عبدالواحد بن سليمان التي قال فيها :

وجَدَدنا غالباً كانت جناحاً وكان أبوك قادمة الجناح

وأمر المنصور رسوله أن يتخفى ، وقال : انتسب إلى بني أمية أو مواليهم وسله أن يتشدك قصيدته الحائية ..
فاذا أنشدكها فاخرجه من المسجد واضرب عنقه وجثني برأسه ، وإذا أنشدك قصيدته اللامية التي يمدحني بها فدفع إليه ألف دينار والخلعة (الأغاني ١٠٦/٦) .

